أثر الإسلام
في شعر لبيد بن ربيعة

الأستاذ الدكتور
شفيق عبد الرازق أبو سعدة

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين « خلق الانسان ، علمه البيان ». والصلاة والسلام على سيدنا محمد القائل : « ان من البيان لسحرا ، وان من الشعر لحكمة » وعلى آله وأصحابه أجمعين . وبعد :

فما فتىء الابهام والغموض يكتنفان بعض الجوانب والقضايا فى أدبنا العربى ، نتيجة اقتفاء اللاحقين أثر السابقين دونما روية ، من منطلق الاذعان لأقوالهم ، والتسليم المطلق لأحكامهم ، حتى مع ما لا يتفق وروح العقل وجوهر الواقع ، فجرت هذه الأفكار ـ على ما فى بعضها من خرق ـ مجرى الأمثال ، وتغلغلت فى الأعماق ، وتقطعت دونها أسباب الوصول الى المعرفة الصحيحة ، أو الوقوف على الحقائق ، ففرضت نفسها على الساحة الأدبية ، بما حملت من غواشى الأوهام منذ هذه الآماد البعيدة والعصور المتطاولة .

بيد أن هذه الجوانب الأدبية المفترى عليها ما برحت تجار بالشكوى ، وتئن بأوزارها وأثقالها ، وتصرخ من كبولها واغلالها وما تراكم عليها ، وتهيب بالدراسين والباحثين الى الدراسة الدائبة والبحث الجاد العميق ، تطلعا الى جلاء الغموض ووضوح المعلم وقشع الضباب وزوال اللبس .

واذا كانت سهام هذه الأفكار التى لا تلائم الواقع قد نالت أدب الجاهليين فانها قد خنقت أدب عصر المخضرمين ـ

وخاصة الشعر ـ خنقا،فلم تبق الا على رفاته واشلائه ، على الرغم من أن الشعر في هذه الفترة كان الاستجابة الفنية لنزعة التعبير عند الانسان ، ومنها ما شاع فى أوساط الباحثين ـ من عرب ومستشرقين ـ أن الاسلام وقف من الشعر موقفا عدائيا وحاربه وقلب له ظهر المجن ، وأن الشعراء لذلك هجروا الشعر ، وأن الاسلام انحسر عن أثر ضئيل نحيل لا يكاد يذكر فى أشعار المخضرمين ·

وأصحاب هذا الزعم المسرف يدعمونه بما يرونه من انه قد ترتب على موقف الاسلام هذا من الشعر أثران سلبيان : انتهى أولهما بالشعر الى الضعف واللين فى لفظه ونوعه وأسلوبه ؛ وانتهى به ثانيهما الى نقص فى موضوعاته ورجاله ، مما أدى الى نقصان القدر المنظوم منه ·

وحاولوا تعليل هذه الظاهرة : فمن قائل : لأن موضوعات الشعر فى الاسلام لم يألفها الجاهليون ، ومن قائل : لأن الشعراء قد بهرهم القرآن الكريم فى أسلوبه وفى بيانه وفى القيم التى جاء بها ·

وليؤكدوا على زعمهم ويدعموا أفكارهم راحوا يتلمسون الأدلة من خلال النماذج والأمثلة ، فاستدلوا على الأثر الأول بشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم « حسان ابن ثابت » وعلى الأثر الثانى بلبيد بن ربيعة ·

وكان الاسلام لم يبعث الشعر ـ فى مكة على الأقل ـ من مراقده ، ولم يستنهضه من مضاجعه !!

وكان الاسلام قد أدهش الشعراء فارتج عليهم !!

والذى لا ريب فيه أن هذه المرحلة تعد من اكثر مراحل

تاريخنا الأدبى غموضا ، ومن أقلها حظا من الدرس العميق والبحث المتأنى الدقيق ، يتوفران عليها ، ويجلوان منها الصورة الواضحة المعالم ، البينة القسمات ، فتنمحى الشبهات وينجلى الغموض .

ان وقوع هذه الفترة بين عصرين أدبيين كبيرين : « الجاهلى والأموى » حدا بالمصنفين — وعلى رأسهم ابن سلام — الى حشر شعرائها المبرزين فى أطار الجاهليين غالبا ، بينما أهملوا غير الفحول .

ولا أدل على ذلك من انه ظهر فى هذه الفترة ما يقرب من السبعين شاعرا وشاعرة ، ومع ذلك فمن جمع شعره منهم فى دواوين ثمانية هم : لبيد ، وحسان ، والحطيئة ، وكعب بن زهير ، وسحيم ، وأبو محجن الثقفى ، وابن أبى الصلت ، والأعشى ؛ ومن المسلم أنه لم يجمع سائر شعرهم ، جريا على سنة الحياة فى الاضاعة والابقاء ، بينما ذهب مع الريح معظم شعر الآخرين ، وأضحى فى حكم المجهول .

فقد نظر المصنفون الى قصر هذه الفترة ، واعتبروها فترة انتقال من قمة جاهلية الى قمة أخرى أموية ؛ ولهذا أغفلوا دراستها وصدوا عنها ، وبالغوا فى اعراضهم وصدودهم فأدخلوا فترة صدر الاسلام فى دائرة الفترة الأموية ، ودمجوا هذه فى تلك على الرغم منهما ، مما أدى الى طمس معالم فترة المخضرمين أو صدر الاسلام .

ومن جهة أخرى فقد دأب علماء الشعر ورواته والنقاد القدامى فى وقت مبكر على التشكيك فى شعر هذه الفترة ، متهمين الكثير منه بالانتحال والحمل على أناس لم يصنعوه .

على الرغم من أن الشعر الذى حملته الينا دواوين هؤلاء

الشعراء يتدثر برداء الاسلام ويحمل طابعه وروحـــه ، وأن أصحابه كانوا من السابقين الى الاسلام العاملين له .

ومع كل هذه السلبيات والمعوقات فقد وجدت فى عصرنا الحديث دراسات حول أدب هذه الفترة ورجالاته ـ متفاوتة فى حظها من العلم والجودة ـ كانت بمثابة المشـــاعل على الطريق ، وأن كانت فى معظمها حائمة مطوفة ، لا ملمـة مستغرقة ، منها : دراسة الدكتور شوقى ضيف فى كتـــابه « العصر الاسلامى » ودراسة الدكتور : السباعى بيومى فى كتابه : « تاريخ الأدب العربى فى صدر الاســـلام والعصر الأموى » ودراسة الدكتور : سليمان ربيع فى كتابه : « فى الأدب الاسلامى والأموى » . .

بيد أن هذه الدراسات قد هيـات أذهـــان الباحثين والدارسين ، وحفزت أقلام المهتمين بالأدب الاســـلامى ، مما كان له عظيم الأثر فى ظهور دراسات جادة وبحـــوث عميقة ، تستقصى وتلم وتمعن ، كدراســـات الدكتـــور : يحيى الجبورى فى كتابيه : « الاسلام والشعر » و « شــعر المخضرمين وأثر الاســلام فيـــه » ودراســـة الدكتـــور : صـلاح الدين عبد التواب فى كتابه « موقف الاســلام من الشعر » .

وما برح حقل هذه الفترة الأدبيـــة خصـــبا ممـرعا للدارسين والباحثين .

ولبيد بن ربيعة العامرى واحد ممن لفحتهم أشعة هذه المزاعم ، واصطلوا فى أتونها ، اذ كان وقود هذه الدعوى ـ فى أحد جانبيها ـ حيث ادعى عليه أنه هجر الشعر بسبب الاسلام ، وأنه انصرف عنـــه انصرافا تاما الى القـــرآن الكريم ، ليثبت الزاعمون الأثر السـلبى لموقف الاســـلام العدائى من الشـعر ، ومنهم من تلطف فأنعم عليـه ببيت

— اختلفوا فيه — ووقفوا به عند حدود شعره الجاهلى ، وعدوه لذلك شاعرا جاهليا .

ووصلهم بما يشتهون أن الرجل لم يكن من شعراء الحروب الاسلامية ، ولم يكن من حملة راية النضال الكلامية ضد المشركين ، كما كان حسان بن ثابت ، الذى رموا شعره بالضعف والوهن ، لأنهم لم يستطيعوا أن يقولوا فيه ما قالوا فى لبيد ، لذيوع شعره الاسلامى الذى ترجم عواطف المسلمين ، وحكى أمانيهم وافكارهم .

وهذا الزعم المسرف شايعه الكثيرون من الرواة والمؤرخين للأدب ، ودار فى فلكه الكثيرون من قدامى ومحدثين ، وكأن الباحثين وجدوا راحتهم فى الاذعان والتسليم بالفكرة الشائعة — على خطئها — دون أن يجشموا أنفسهم عناء البحث عن الحق ، والتنقيب عن الحقيقة !!

وكان جرى اللاحق فى فلك السابق اصبح تقليدا ، لدرجة أن المؤرخ الذى تلوح لناظريه الفكرة فى جوهرها الصحيح لا يحاول استقصاءها واماطة اللثام عنها ، ليسرع مهرولا الى الانضواء تحت لواء السابقين ، فهذا ابن قتيبة — مثلا — نراه يقول فى قول لبيد :

وكل امرىء يوما سيعلم سعيه
اذا كشفت عند الاله المحاصل

« هذا البيت يدل على انه قيل فى الاسلام ، وهو شبيه يقول الله تبارك وتعالى : (وحصل ما فى الصدور) . ثم تجذب ابن قتيبة جاذبية الدائرة فيقول : أو كان لبيد قبل اسلامه يؤمن بالبعث والحساب ، ولعل البيت منحول »(١)

(١) الشعر والشعراء ١/٢٧٩ .

ومثله في ذلك صاحب الاستيعاب . ولهذا اضطربت بهم أفكارهم من حيث لا يحتسبون ، فذكروا للبيد أشعارا تؤكد الأحداث والمناسبات أنها قيلت بعد اسلامه ، لأن الحق أحق أن يتبع ، وليدلوا على بطلان زعمهم من حيث لا يريدون ؛ - وحيل بينهم وبين ما يشتهون - .

ولما كانت الكلمة الأخيرة في أى مادة علمية لما تقل بعد ، ولما لم تكن هذه القضية قد حسمت في دراسة مستقصية ملمة بالموضوع من كل أطرافه ، فقد آليت على نفسي أن أخوض غمارها ، وأن أدلي بدلوى في معينها ، رغبة في الظفر بالصواب ، وابراز الرشاد على لواء الحقيقة .

خاصة أن لبيد - كما يؤكد ديوانه - يعد الوحيد من بين الشعراء المخضرمين الذى عبر بالشعر الجسر الذى يقود من القديم الى الجديد ، وحافظ على مستوى شعره الاسلامي ، على الرغم من اختلاف موضوعاته ، فهو يعد نموذجا حيا لمجموعة كبيرة من شعراء البادية الذين شملهم الاسلام واستجابوا له ؛ وفي لبيد تتمثل عاطفة المؤمن الصادق ، وايمان الرجل التقى ، وأغوار النفس الفياضة بالهداية والبر والرحمة ، وقد عبر شعره الاسلامى عن الأفكار والقيم الاسلامية ، ومعانى القرآن الكريم ، مقتفيا أثر الاسلام في آدابه وتعاليمه . كما يتضح في هذه الدراسة ان شاء الله .

والواقع أن ابراز الحقائق ليس بالأمر الميسور بحال من الأحوال ، لأن الأفكار التى روج لها كثير من الذين أرخوا للأدب وشايعوها قد استقرت في الأذهان ، وأن هؤلاء الذين روجوا هذه الأفكار هم بالنسبة لنا المصدر الذى نستقى منه .

ولهذا فان جلاء الحقائق ، وتعرية هذه الأفكار ، وخلع ثياب الحقيقة عليها انما يحتاج الى عمق فكرى ونظر ثاقب وغوص فى لجج الكتب .

ومن ثم سلكت الى غايتى طريقى الاستقراء والاستنباط ، محاولا استنطاق الأحداث وأقوال المؤرخين ، متلمسا فيها ما يفيد ، واقفا عند ما فيها من اضطراب ، كاشفا عن صلة النص الشعرى بالتاريخ ، فمثلا الشعر الذى رثى فيه لبيد أخاه لأمه أربد ، أو الذى رثى فيه عامر بن الطفيل شعر اسلامى ، لأن أربد وعامر بن الطفيل هلكا بعد لقائهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد مؤامرتهما الدنيئة الخاسئة فى عام الوفود ، وكان لبيد وقتئذ مسلما ، ومثله شعره فى سلمان الباهلى .. وهكذا .

كذلك افصحت فى دراسة فنية تحليلية عن الأثر الاسلامى فى شعر لبيد ، سواء أكان أثرا روحيا أم فكريا أم انسانيا أم فنيا ، وعن مدى ارتواء الشاعر من النبع الاسلامى الفياض ، واقتباسه من آى الذكر الحكيم .

وكان لهذا ديوان لبيد بتحقيق الدكتور : احسان عباس المصدر الرئيسى من مصادر البحث.ولا أدعى لبحثى هذا كل الجدة أو الابتكار ، فقد طرق فكرته دارسون من قبل ، غير أنهم لم يعالجوا الموضوع من جميع جوانبه ، وما ذلك إلا لأنهم تعرضوا للفكرة من خلال دراسة مواضيع أخرى ؛ فبقيت لذلك فكرته عائمة غائمة ، ودعوى المدعين قائمة ، ومن هنا جاءت حتمية دراستى هذه .

والأمل معقود فى ان أكون قد دنوت من مرافىء الصواب ، ورويت ظمأ الصادى وعلالة المشوق ، وأجليت غامضا وقررت حقيقة .

وحسبى انى حاولت دعم الحق ، ودمغ الزعم ، وصدع الدعوى .

رغبة فى وضع الأمور فى نصابها ، واعطاء القـوس باريها .

آملا أن تكون هذه الدراسة حلقة مثمرة فى سـلسلة الدراسات الأدبية والعربية .

والله يوفق الخطا وهو يهدى السبيل
انه نعـم المولى ونعـم النصـير

المدينة المنورة فى : غرة رجب ١٤٠٤ هـ
٢ من ابريل ١٩٨٤ م

د . شفيق عبد الرازق أبو سعدة

القسم الأول

لبيد بين الجاهلية والاسلام

١ ـ أسرة لبيد ، واثرها فى تكوين شخصيته وشعره

٢ ـ نشاة لبيد ، واحداث قومه ومكانته بينهم

٣ ـ اسلام لبيد ، وحياته فى ظلال الاسلام

أسرة لبيد وأثرها

في تكوين شخصيته وشعره

في أواسط نجد – شرقي الحجاز ، وجنوبي منازل عبس وذبيان ، وغربي منازل بني تميم – انتشر بنو عامر ابن صعصعة ، أشد عشائر هوازن بأسا وأقواها شكيمة ، وامتدت مراعيهم جنوبا حتى بني حنيفة في اليمامة ، وبني الحارث بن كعب في نجران ، ومذحج في شمالي اليمن ، والتاريخ شاهد على أن أعلى هذه العشائر كعبا هي عشيرة بني جعفر العامرية .

وفي عشيرة بني جعفر العامرية المعروفة بالسيادة والمنعة والشرف ولد لبيد بن ربيعة (١) بن مالك بن جعفر ابن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ؛ ويكنى لبيد أبا عقيل . وآباؤه بنو أم البنين بنت عمرو بن عامر ابن ربيعة فارس الضحياء ، فقد ولدت لمالك بن جعفر خمسة من الأعلام الفرسان : عامر بن مالك المكنى بأبي براء ، والمعروف « بملاعب الأسنة » (٢) وطفيل بن مالك فارس قرزل (٣) وهو أبو عامر بن الطفيل ، وربيعة ابن مالك – أبا لبيد – وكان يسمى ربيعة أو : « ربيع المقترين » لجوده وسخائه ونجدته (٤) ، ومعاوية

---

(١) زادت بعض المصادر كالاستيعاب والاصابة والخزانة ، عامرا بين ربيعة ومالك ، وهذه الزيادة – كما يقول ابن قتيبة – : خطأ في النسب ، لأن عامر بن مالك عم لبيد لا جده . انظر الشعر والشعراء ٣٧٤/٢ .

(٢) سمي بذلك لقول أوس بن حجر فيه :

فلاعب أطراف الأسنة عامر   فراح لها حظ الكتيبة أجمع

الأغاني ٩٠/١٤ .

(٣) قرزل : فرس كانت له .

(٤) انظر أمالي المرتضى ١٩٣/١ ، الأغاني ٩٠/١٤ .

ابن مالك معـود الحكام (١) ، وعبيـدة الوضاح او نزال المضيق ، فهؤلاء خمسة ، وأما ما جاء فى أرجوزة لبيد :

نحن بنو أم البنين الأربعـة
ونحن خير عامر بن صعصعة

فمحمول على الضرورة الشعرية ، لأن مراعاة القوافى لم تمكنه من ذكر « الخمسة » أو لعل لبيـدا قال ذلك لأن أباه كان قد مات وبقى أعمامه وهم أربعة (٢) .

وأم البنين احـدى المنجبات العربيـات اللائى ولدن أكثر من ثلاثة بنين أشراف (٣) . ومن اللائق هنا أن أشير الى أن تاريخ منطقة نجد فى القرن السادس الميلادى يعد تاريخ الأبطال أبناء المنجبات ، وأن حظ هؤلاء الأبطال من الشهرة والذيوع — فى الجزيرة بعامة — لم يكن ناتجا عن الشجاعة الفردية فحسب بل على الرأى والتجـربة والخبرة أيضـا ؛ ولـكم قدمت الجزيرة أبطالا وصناديد وقودا للمعـارك ،

---

(١) وانما سمى معود الحكام لقوله :

اعود مثلهـا الحكام بعـدى — اذا مالحق فى الأشياع نابا

امالى المرتضى ١/١٩٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق ١/١٩٤ .

(٣) ومنهن فى بنى عبس أم الكملة فاطمـة بنت الخرشـب الانمارية ، التى ولدت : الربيع الكامل وقيس الحفاظ وعمارة الوهاب وانس الفوارس ابناء زياد العبسى ؛ وقد روى ان عبد الله بن جدعان لقيها وهى تطوف بالكعبة ، فقال لها : نشدتك الله برب هذه البنية .. اى بنيك افضل ؟ قالت : الربيع لا بل عمارة لا بل قيس لا بل انس ، ثكلتهم ان كنت ادرى ايهم افضل !! هم كالحلقـة المفرغة لا يدرى اين طرفاها . انظر الأغانى ١٦/١٩ ، وامالى المرتضى ١/١٨٩ . ومنهن — فى تميم — مارية بنت عبد مناة بن عبد الله بن دارم ، ام حاجب ولقيط وعلقمة ابناء زرارة بن عدس التميمى . وفى بنى ذبيان : انجبت امراة بدر بن عمرو ، حذيفة الذى لقب « رب معـد » واخوته : حملا ومالكا وربيعة والحارث .

وزجت بالكثيرين فى أتون الحرب المستعر على الدوام وقد كثر فى قوم لبيد الفرســـان الأعـــلام ، يقول أبو عمـــرو ابن العلاء : « جاء الاســلام واربعــة أحياء قد غلبوا على الناس كثرة : شــيبان بن ثعلبة ، وجشــم بن بكر ، وعامر ابن صعصعة ، وحنظلة بن مالك ، فلما جاء الاسلام خمــد حيــان وطما حيان ، طما بنو شيبان وعامر بن صعصعة ، وخمد جشم وحنظلة » (١) وقد لفتت شجاعة فرسانهم نظر صاحب الصمصامة عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، فقال : « لو سرت بظعينة وحدى على مياه معد كلها ما خفت أن اغلب عليها ما لم يلقنى حراها أو عبداها !! فأما الحران : فعامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وامــا العبدان : فأســـود بنى عبس — يعنى عنترة — والســليك ابن الســلكة ، وكلهم قد لقيت ، فأما عامر فسريع الطعن على الصوت ، وأما عتيبة فأول الخيل اذا اغارت وآخرها اذا آبت ، وأما عنترة فقليل الكبوة شــديد الجلب ، وأما السليك فبعيد الغارة كالليث الضارى » (٢) .

كذلك لفتت كثرة فرســـان العامريين — والجعفريين خاصـــة — وعزتهم ومنعتهم أنظار الملوك ، ولا ريب فان من رهط لبيــد عروة بن عتبــة بن جعفر المعروف بعــروة الرحال الذى كان يجير لطيمة (٣) النعمــان بن المنــذر ، وابن عمه عامر بن الطفيل من أوسع فرسان العرب ذكرا وشـــهرة ، وهو القائل — من منطلق احساســـه بشجاعتـه وشجاعة قومه وكثرتهم وغلبتهم — :

وما الأرض الا قيس عيلان أهلها
فهم ساحتاها : ســهلها وحزومها

---

(١) الانباء على قبائل الرواة ص ٩٧ .

(٢) الأغانى .

(٣) لطيمة النعمان : عير عليها قطف وبز كان يرسلها النعمان الى أسواق العرب تباع له ، وليستبدل بها مما فى هذه الأسواق من أدم ومتاع .

وقد نال آفاق السموات مجدنا
لنا الصحو من آفاقها وغيومها (١)

أولئك قوم لبيد ، بنو جعفر بن كلاب الذين يقول فيهم طفيل الغنوى :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت
بنا نعلنا فى الواطئين فزلت
هم خلطونا بالنفوس والجأوا
الى حجرات أدفأت واظلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا
تلاقى الذى لاقوه منا لملت

وللعامريين تاريخ طويل حافل بالأحداث ، فقد خاضوا معارك كثيرة مع القبائل المجاورة لهم ، وأثرهم واضح فى أيام العرب .

وأما أم لبيد : فهى تامرة بنت زنباع العبسية ، احدى بنات جذيمة بن رواحة العبسى ، من أسرة ذات سيادة وشرف ، تلتقى فى نسبها مع زهير بن جذيمة سيد غطفان ، وقيس بن زهير ابنه سيد بنى عبس ، وهى ابنة عم الربيع بن زياد ، يلتقيان فى جد أبيه معاوية بن مخزوم ابن عوف ، وقد افتخر لبيد بأخواله الذين ولوا المشارف فى قرى العراق وما يليه من بلاد العجم ، وأعطوا فوق ما يعطى الوفود قائلا :

وشارف فى قرى الأرياف خالى
واعطى فوق ما يعطى الوفود
وخالى خذيم وأبو زهير
وزنباع ومولاهم أسيد

(١) الشعر والشعراء ٣٣٥/١ .

وجمع بين الفخر بعمومته وخؤولته فى قوله :
أولئك أســرتى فاجمع اليهم
فما فى شـعبتيك لهم نديد(١)

ومن ثم فانه يكون فى مقدور الباحثين أن يتلمسوا شعاعا من ضوء ليهتدوا بسناه الى صورة يمكن أن تكون واقعية ، أو قريبة من الواقع فى تقدير نشأة الشاعر الخاصة والمتميزة التى درج فى خلالها ، وتأثرت مواهبه منذ صباه بآثارها ومعالمها ، وتفتقت طاقاته فى ظلالها ، فهو حدث قد تحرك ، ومآثر قومـه ذائعـة ، وشـهرة آبائه مطبقة ، تملأ آفاق نجـد ، وما يكون للبيـد أن يصرفه شىء ما عن الاصغـاء لما يجـرى بين الناس عنهـم ، وما يذيعونه من مناقبهم ، فما من واحد فيهم الا يشار اليه بالبنان .

ولبيد قد نبت فى هذا الجو الكريم ، واثر فيه شعوره العميق بكرامة أسرته ومناقبها وأمجادها ، فنشأ لذلك — كما تؤكد المصادر — رجلا كريما سخيا جوادا فارسا شجاعا شاعرا مجيدا ، صافى النفس حلو الشمائل ، برا بقومه وفيا لهم .

يجد أصحاب الشعر فيه مادة غنية للحديث عن شعره ، وأصحاب المروءة معينا لا ينضب للحديث عن مروءته ، ولعله من منطلق احساســه العميق بمكانة أسرته ســاد فن الفخر — فى جاهليته — شعره ، ولون أدبه ، لقد كان لبيد فخورا فى الجاهليـة ، ملحا فى الفخـر ، يكاد يتورط فى الاسراف والغلو ، يفخر بنفسـه وبعشـيرته ، ويدافع عن أحساب قومه ، حتى يكاد الفخـر يكون صناعـة لبيد فى الجاهلية ، الى جانب مدح كرام قومه ، ورثاء موتاهم ، وهجاء عدوهم ؛ وهذا — كما يوحى شـعره آنذاك — انما يرجع الى هـذه المسحة التى بدت عليـه من بأس البادية

---

(١) انظر ديوان لبيد ص ٣٩ وما بعدها .

وخشـونة الصحراء ، والى هـذا الفيض من فضائل هـذه النفس العالية ، وتلك التربيـة الكريمة : لقد كان لبيـد شاعر قومه ، يذود عن أحسابهم ، ويدافع عن مكانتهم ، ويناضل عن مآثرهم كلما احتاج الى النضال ، فهم عنده القروم السـادة الذين نظر الدهر اليهم فابتهل ، يحدثنا الرواة (١) أن لبيدا بدأ حياته الشعرية بهذا النضال ، كان فتى غرا ، فصحب قومه فى سفارة لهم الى قصور الحيرة عند النعمان بن المنذر ، الذى كان العامريون يفدون عليه كل عام (٢) ويرون منه اقبالا عليهم ، وتلطفا لهم ، وكان على رأس وفـد العـامريين عـم لبيـد أبو البراء عامـر ابن مالك ، ثم رابهم من النعمان ريب ، وأحسوا اعراضه عنهم وصدوده ، والتمسوا مصدر الداء فعرفوا أن الربيع ابن زياد العبسى — الذى كان يدعى الكامل لشطاطه (٣) وبياضه وكماله — وهو خال من أخوال لبيد : يكيد لهم عند النعمان ويدس ، وكان الربيع نديما من ندماء النعمان ، أثيرا عنده ، يستخلصه لنفسه ، ويقدمه على من سواه .

وكان بين العبسيين — أخـوال لبيد — وبنى عامر — رهط لبيـد — عـداوة ، أثارها أن خالد بن جعفر — أحـد سادتهم وقوادهم — قتل زهير بن جذيمة أبا قيس بن زهير صاحب داحس والغبراء ، وخلص قومه وسائر بطون هوزان من ذل الاتاوات التى كان يجبيها منهم عسفا وقسرا .

---

(١) انظر : أمالى المرتضى ١/١٩٠ ، الأغانى ١٤/٩١ ، خزانة الادب ٤/١٠ وغيرها .

(٢) غير أن البغدادى يقول فى خزانتـه ٤/١١ : ان العامريين اتوا النعمان فى أسـارى من بنى عامر يشترونهم منـه . وسواء أكانت وفادتهم توطيدا للعـلائق وتوكيدا للصلات ام افتـداء اسراهم ، فالمهم عنـدنا — هنـا — موقف لبيد بين يدى النعمـان ، وموازرته قومـه ، وانتصاره لهم .

(٣) الشطاط : استواء القامة وحسنها .

وعاد بنـو عامر من عنـد الملك الى رحالهم غضـابا ، وأرقوا لهذا الذى نزل بهم ذات ليلة ، وأتمروا فيما بينهم ، ولبيد الفتى يسمع لهم ، ثم سألهم أن يبينوا له جلية الأمر ، فاعرضوا عنه ، واعتلوا عليه ، فقال : أخبرونى فلعل لكم عنـدى فرجا ، ثم أقسـم لا يحفظ لهم متاعا ولا يرعى لهم بعيرا أن لم يخبروه ، فقال له عمه : خالك (١) الربيع قد غلبنا على الملك،وصد عنا وجهه ، فقال : أنا اكفيكم الربيع ، فاذا أصبحتم فاصطحبونى الى مجلس الملك،فارجز به رجزا ممضا مؤلما ، لا يلتفت اليه النعمان بعده أبدا ، قالوا : فانا نبلوك بشتم هذه البقلة ـ وتدعى التربة ـ فقال : هذه التربة التى لا تذكى نارا ولا تؤهل دارا ، ولا تستر جارا ، عودها ضئيل ، وفرعها ذليـل ، وخيرها قليل ، نبتها خاشـع ، وآكلها جائع ، والمقيم عليها ضائع ، أقصر البقول فرعا ، وأخبثها مرعى ، فتعسا لها وجدعا !! القوا بى أخا عبس ، أرده عنـكم بتعس ، وأتركه من أمـره فى لبس !! . فلما وافقوا منه فتى فصيحا صارم اللسان ، قالوا : أنت واللـه صاحبه ، واصطحبوه حين غدوا على الملك ، فلما اذن لهم دخلوا فاذا النعمان على طعامه ومعه نديمه وصفيه الربيع يطاعمه ، وقد اخذ ينتقص بنى جعفر ليصرف الملك عنهم ، فوثب لبيد ، وكان قد دهن احد شقى رأسه ، وأرخى ازاره ، وانتعل نعـلا واحـدة ـ وكذلك كانت الشـعراء تفعل فى الجاهلية اذا أرادت الهجاء ـ فلما كان بحيث يسمعه الملك رجز قائلا :

أكـل يـوم هامتى مقذعـــه
يارب هيجا هى خير من دعه
نحن بنو أم البنين الأربعـــه
ونحـن خير عامر بن صعصعه

---

(١) لعل هذه الخؤولة هى التى حالت بينهم وبين اخباره بادىء ذى بدىء .

المطعمون الجفنة المدعدعه
والضاربون الهام تحت الخيضعه
مهلا ابيت اللعن لا تاكل معه
ان استه من برص ملمعه
وانه يدخل فيها اصبعه
يدخلها حتى يوارى اشجعه

● كانه يطلب فيها شيئا ضيعه ●

فلم يكد النعمان يسمع هذا الرجز ، حتى تاذى ، وكف يده عن الطعام قائلا : اف لهذا الطعام ، والتفت الى الربيع يرمقه شزرا ، واقبل على بنى جعفر فقضى لهم حوائجهم ، واكرم وفادتهم ؛ وقد حاول الربيع أن يبرىء نفسه مما وصمه به لبيد الفتى فلم يفلح ، اذ قال له النعمان : انك لست صانعا بانتفائك مما قال شيئا ، ولا قادرا على رد مازلت به الألسن ، فالحق بأهلك ·

واضطر الى الرحيل مغاضبا للملك ، مغاضبا للبيد ·

ومن هنا عرفت كفاية لبيد ونجابته ، الذى كان — كما رأينا — صاحب فخر ودفاع عن أحساب قومه منذ صباه ؛ وهذه الواقعة تثبت نبوغ لبيد وتفوقه على الندماء ، واصالة الموهبة الفنية والمقدرة الشعرية فى أعماقه ووجدانه ، فهذا الشعر المتقن يدل على أنه صنع بدقة وبراعة حتى خفيت فيه الصنعة ، وبدا للسامعين كانه وليد الفطرة وابن البديهة وعفو الخاطر ، ومزج الشاعر بين الهجاء المقذع والفخر والتعالى ليدل على أنه جرى على طبيعة الأشياء التى تقتضى أن يكون الشاعر المنافر بارعا فى الهجاء ، حين يقف من قومه موقف المحامى المدافع ·

نشـــــأة لبيـد

واحداث قومـه ومكانته بينهم

ذاقت نفس لبيد اليتم وهو صبى مهيض الجناح قليل الحيلة ، بأب يذكر اذا جد الجد ، تعرفه ساحات الحروب ، وتبرزه ميادين الكرم ، قتله الأســـديون فى حرب بينهم وبين قومه (١) وادرك بثاره عامر بن مالك أخوه ، فقد كان قوم لبيد أصحاب غارات وفيهم بأس وتعرض للترات .

وكان مقتل ربيعـة فى يوم كان لبنى أسـد على بنى عامر يعرف بيوم « ذى علق » (٢) يقول لبيد :

ولا مـن بيـــع المقترين رزئتـــه
بذى علق فاقنى حياءك واصبرى(٣)

ويشيد بكرم أبيـه « ربيع المقترين » الذى كان أحـد مطاعيم الريح فى الجاهلية ، فيقول :

وجـدت ابى ربيعـا لليتامى
وللأضياف اذ حب الفئيد (٤)

ويقول :

وابـــى الــذى كــان الارا
مـــل فى الشتاء له قطينا(٥)

---

(١) يقال : قتله منقذ بن طريف الأسدى ، او الصامت بن الأفقم - الشعر والشعراء ٢٧٤/١ .
(٢) ذو علق : جبل بديار بنى اسد .
(٣) ديوان لبيد ص ٤٨ .
(٤) الديوان ص ٤٠ ــ الفئيد : هو الخبز او الشواء او النار .
(٥) الديوان ص ٣٢٢ .

وتكفل بأمره أعمامه الذين بروا به وأحنوا عليه ، وكانوا له خير الآباء ، كما يؤكد قوله :

لعبت على أكتافهم وحجورهم
وليدا وسمونى لبيدا وعاصما (١)

ونشأة لبيد هذه تتفق ونشأة أمه ، فقد نشأت هى الأخرى يتيمة فى حجر الربيع بن زياد العبسى ، وتزوجت قبل أبيه – قيس بن جزء بن خالد بن جعفر ، فأنجبت له أربد ، ثم تزوجت – من بعده – ربيعة فأنجبت له لبيدا ؛ ومن ثم كان أربد أسن من لبيد ، وكان يعطف عليه ويحنو باعتباره الأصغر ، وقد أثرت معاملة أربد الطيبة فى نفس لبيد تأثيرا كبيرا ، اذ أحبه حبا جما ، وأعجب به وبشجاعته وبكل ما يأتى من أعمال ، وامعان فى الاقبال على اللذائذ ، وشدة على الأعداء ، ولين مع الأقرباء ، وفيه يقول :

ممقر مر على أعدائه
وعلى الأدنين حلو كالعسل (٢)

وقد تتابعت احزان لبيد بموت أخيه أربد ، الذى كان به صبا ، فرثاه بقصائد تعد من عيون هذا الفن .

وحرى بنا قبل الاسترسال فى نشأته ان نقف مليا عند مولده ، نبين – قد رالطاقة – وجه الصواب فيه ، حيث اختلف المؤرخون حوله اختلافا كثيرا .

ليس بين أيدينا ما يثبت عن يقين العام الذى ولد فيه لبيد ، فكل ما وقعنا عليه فى هذا الجانب يقوم على الحدس وينهض على التخمين ، والاختلاف واضح بين الروايات ،

---

(١) الديوان ص ٢٨٧ .
(٢) الديوان ص ١٩٧ .

ولذلك فسوف أعتمد على التقصى والاستنباط معا فى محاولة للوصول الى ما ننشد ·

يذكر الرواة والباحثون أن لبيدا كان يوم جبلة (١) الذى كان لبنى عامر وحلفائهم على بنى تميم وحلفائهم ، والذى ولد فيه عامر بن الطفيل ، كان لبيد فى هذا اليوم ابن تسع سنين ، وكان يقف الى جانب عمه عامر بن مالك أبى براء ، الذى كان يقول له يومئـذ : « اليوم يتمت من أبيك ان قتل أعمامك » ، وهذا يثبت لنا أن لبيدا كان فى هذا الوقت فى كفالة أعمامه الذين كانوا له فى مقام أبيه ، الذى كان قد قتل ــ كما سبق ــ فى يوم « ذى علق » ·

ومن المرجح لدى أن يوم جبلة كان فى سنة احدى أو ثنتين وخمسين وخمسمائة للميلاد ·· نستخلص ذلك مما ذكره المؤرخون : أن عامر بن الطفيل ــ الذى ولد فى هذا اليوم ــ وفد على النبى صلى الله عليه وسلم عام الوفود ــ العـام التاسع للهجرة ــ وهو ابن نيف وثمانين (٢) والنيف هنا ــ فى رأيى ــ لا يتعدى العام أو العامين ، لأنه لو كان يتعدى ــ هنا ــ الى أكثر من عامين ، لكان الأجدر بهؤلاء المؤرخين والرواة أن يستعملوا لفظة « البضع » ، ولو حسبنا هذه المدة الزمنية لاتضحت الحقيقة التى سقناها ؛ والتى توصلنا الى أن لبيدا الذى يكبر ابن الطفيل بتسع سـنين يكون قد ولد فى سنة ثنتين أو ثلاث وأربعين وخمسمائة ، واذا كان لبيد يقول فى احدى قصائده :

وغنيت سبتا قبل مجرى داحس
لو كان للنفس اللجـــوج خلود

---

(١) انظر ايام العرب ، ط الحلبى ، ص ٣٤٩ ·

(٢) انظر كتاب المعمرين من العرب ص ٥٢ ، والسـيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٩ ·

ويروى : « وعمرت حرسا قبل » (١) .

والمعتقد أن مجرى داحس ـ داحس والغبراء ـ كان في أواسط القرن السادس أي حوالي خمسين وخمسمائة ، أو قبيل ذلك ، وأنه مقارب ليوم جبلة في تاريخه (٢) ، وهذا لا يعكر صفو ما توصلنا اليه ، لأن مدلول « السبت أو الحرس » عدديا غامض ، ولم يقدر بالتحديد كمه الزمني ، ومن هنا يكون « السبت أو الحرس » القطعة من العمر ـ قلت هذه القطعة أو كثرت ـ وكأن لبيدا اذن يؤكد على انه ولد قبل مجرى داحس ـ ولو بعامين او ثلاثة كما استخلصنا ـ .

وقد نشأ لبيد والقبيلة بكل مقوماتها تجري في دمه ، اذ كان يشعر شعورا عميقا بكرامة قبيلته وعلو كعبها ، وشارك في حروبها ، وافتخر بانتصاراتها وهجا أعداءها .

لقد نشأ بين ذوائب العرب في العريض الباذخ من العز والعدد والشرف ، وقد اتصلت تلك الشمائل العالية بنفسه ، حتى قال عنه الرواة : انه كان من الشعراء الأشراف والفرسان الشجعان والأجواد الأسخياء .

ويتراءى لي أن جلبة صوت شعره في عالم القريض في الجاهلية كانت أشد من جلبة وقع سيفه في ساحة الوغى .

وقد ورث لبيد من أبيه حلة الجود وسجية الكرم ، فنذر على نفسه في الجاهلية ألا تهب الصبا الا نحر وأطعم الناس (٣) ، وقد وفى بنذره في الجاهلية ، وحرص على

(١) الديوان ص ٣٥ .
(٢) انظر مقدمة الديوان ص ١٨ .
(٣) الأغاني ١٤/٩٤ .

الوفاء به في الاسلام ، وهذا الكرم الفطرى اكد عليه قول لبيد فى معلقته (١) :

وجزور أيسار دعوت لحتفهـا
بمغالق متشـابه اجسـامها
ادعو بهن لعاقـر أو مطفـل
بذلت لجيران الجميع لحامها
فالضيف والجار الجنيب كانما
هبطا تبـالة مخصبا أهضامها
تاوى الى الأطنـاب كل رذية
مثل البلية قالص أهدامهـا
ويكللون اذا الريـاح تناوحت
خلجا تمد شـوارعا أيتامهـا

ولم لا يكون كذلك ؟! وهو ـ كما يتحدث عن نفسـه ومعشره : ـ

من معشر سـنت لهم آباؤهم
ولكل قـوم سـنة وامامهـا

وقد ازداد شعور العامريين بالقوة بعد يوم جبـلة ، الذى انتصروا فيـه انتصـارا سـاحقا على الذبيانيين وبنى تميم ، أخرجهـم عن طورهم ، فتصـوروا أن فى مقـدورهم أن يقضـوا القضـاء المبرم على بنى حنظـلة التميميين ، لكن جموعهم الكثيفة لم تغن عنهم شيئا أمام قوم يدافعون عن أنفسهم فى سـبيل البقـاء ، فانهـزم العامريون فى يوم « ذى نجب »(٢) وعلى رأسهم الطفيل ـ صاحب قرزل ـ وقتل عبيدة بن مالك ـ عم لبيد ـ وعمرو

(١) الديوان ص ٣١٨ .
(٢) كان بعد عام من يوم جبلة .. انظر ايام العرب فى الجاهلية ص ٣٦٥ .

ابن الأحوص — رئيس بنى عامر آنئذ — ، وعاد بنو عامر الى مواطنهم يلعقون مرارة الهزيمة ، وحزن الأحوص على ابنه عمرو حزنا شديدا أدى الى وفاته .

وقد مهدت هذه الأحداث لظهور زعيم جديد يقود معارك بنى عامر ، وذلك هو : عامر بن مالك أبو براء — عم لبيد — فقد بدأ نجمه فى التالق منذ يوم — ذى نجب — اذ استطاع أن ينقذ البقية الباقية من العامريين .

ثم حدث انقسام فى بنى عامر ، بين حيين من احيائها هما : بنو جعفر وبنو أبى بكر بن كلاب ، لأمور تتعلق بالجوار (١) فقد قتل منيع الجعفرى رجلا من الكلابيين ، وفى الوقت ذاته قتلت قبيلة غنى ابنا لعروة بن جعفر ، وأراد الكلابيون أن يبوء أحد القتيلين بالآخر — اذ كانت قبيلة غنى فى جوار بنى أبى بكر بن كلاب — فأبى بنو جعفر اقتراحهم ، ورفضوا رغبتهم ، والتحم الفريقان فى حرب ضروس خذل فيها بنو جعفر ، وقضى عليهم جواب البكرى — رئيس بنى أبى بكر — بالنفى عن ديار بنى عامر ، واضطرت بنو جعفر آسفة الى النزول على حكم جواب ، وخرجوا متوجهين الى اليمن ، ونزلوا بلاد الحارث بن كعب ، وحالفوهم ، وأقاموا بين ظهرانيهم حولا كريتا . وأدى نزوح الجعفريين عن قومهم الى طمع القبائل فيهم ، فقد اجتمعت أسد وغطفان وضبة وعدى ، وهزموا العامريين فى يوم « النسار » (٢) الذى غاب فيه أبطال بنى جعفر امثال : ملاعب الأسنة وفارس قرزل وسلمى بن مالك وغيرهم .

وأراد بنو الحارث بن كعب أن يتقووا بالجعفريين

---

(١) انظر حديث ابن ضبا فى المرجع السابق ص ٣٠٠ ومابعدها .
(٢) ايام العرب فى الجاهلية ص ٣٧٨ .

ويصبحوا معا أعز العرب ، وذلك باشتباك الأرحام بينهما، وتزوجهم من بنى جعفر عشرين امرأة ، وتزوج بنى جعفر منهم عشرين إمرأة ، وأقرت بنو جعفر اقتراح بني الحارث الا أبو براء زعيمهم ، الذى صرخ في قومه « لا يبقين أحـد له فرس الا ركبه ، ولا سلاح الا لبسه ، وأخذ رمحه ، ففعلوا، ثم نادى أن احتملوا بأثقالكم ونسـائكم ، وسـيروا حتى تقطعوا ثنية النهر — وهى ثنية باليمن — فاذا قطعتمـوها فانزلوا ، ففعلوا ، ووقف عليهم عامر حتى جاوز الثنية ، ثم أتاهم فقال : هل أخذت لكم دية ؟ أو أبتكم على خسف قط ؟ قالوا : لا . قـال : والله لتطيعنني أو لأتكئن علـى سيفى حتى يخرج من ظهـرى . وقال : أتدرون مـا أراد القوم ؟ أرادوا أن يرتبطوكم فتكونوا فيهم أذنابا ويستعينوا بكم على العرب ، وأنتم سادة هوازن ورؤساؤهم » (١) .

ونصحهم بالعودة الى ديارهم ومصـالحة ذويهـم . وكاد هذا الأمر يؤدى الى انقسام بين أبناء العشيرة ، لولا تصدى لبيد بن ربيعة بحزم للموقف ، فقد استطاع بخلابة لسانه ومكانته فى قومه أن يحول بينهم وبين الشقاق ، وأن يقرهم على رأى عمه عامر . وموطن لبيد فى هذا اليوم من المواطن التى أشاد بها وافتخر ، ومن ذلك قوله فى قصيدته التى مطلعها :

من كان منى جاهلا أو مغمرا
فما كان بدعا من بلائى عامر
ويوم منعت الحى أن يتفرقوا
بنجران ، فقرى ذلك اليوم فاقر(٢)

ولبيـد كان كثير الدفـاع عن قومـه — الذين يحبهم

---

(١) النقائض لابن عبيدة نشر بيفان ص ٥٣٤ .
(٢) الديوان ص ٢١٥ .

ويكرمونه ـ بسيفه وبلائه تارة :

وحميت قومى اذ دعتنى عامر
وتقدمت يوم الغبيط وفود (١)

أو بذرابة لسانه وعذب بيانه ومكانته بين قومه وبين الناس تارة أخرى :

ومقام ضيق فرجتـــه ...
بمقــامى ولســـانى وجـــدل
لو يقـــوم القيـــل أو فيـــاله
زل عن مثـل مقامى وزحل (٢)
حتى حق له أن يشيد بذلك قائلا :
لى النصر منكم والولاء عليكم
وما كنت فقعا انبتته القراقر (٣)

ولقد كان لبيد يتحرق شوقا وحنينا الى وطنـه ، عـلى نحو ما أفصح فى ميميته :

بكتنـــا أرضـــنا لما ظعنــــا
وحيتنـــا ســـفيرة والغيام (٤)

وعاد بنو جعفر الى مواطنهـم ، وعـــاد بعـــودتهم للعامريين نفوذهم وجاههم .

وتوثقت الصلة بينهم وبين النعمان بن المنذر ، حتى عهد بحماية تجارته والمرور بها على جميع العـــرب الى

---

(١) الديوان ص ٣٧ .
(٢) الديوان ص ١٩٣ .
(٣) الديوان ص ٢١٩ .
(٤) الديوان ص ٢٩٣ .

عروة الرحال العامرى ، غير أن البراص الكنانى ـ الخامل الذكر ـ يتعدى على التجارة ويقتل عروة ، لتثور الحرب الضروس بين العامريين ـ أو هوازن ـ بقيادة أبى براء وبين قريش وكنانة ، والمعروفة بحروب الفجار ، لوقوعها فى الأشهر الحرم ، وقد شهد النبى صلى الله عليه وسلم بعض هذه الحروب ـ وهو غلام ـ وآخر حروب الفجار سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وانتهت بالصلح بين المتحاربين. وانتهت بانتهائها زعامة أبى براء الميدانية ، ووقفت على أعمال السلم ، ليحل محله الفتى الناشىء عامر بن الطفيل، الذى استطاع أن يثبت لنفسه فى حروب قومه مكانة وفروسية ، والذى قامت سياسته على عاملى الطموح والغرور .

بيد أن السيادة العامرية كانت مثار جدل وخلاف بين ابن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، حيث عظم الشر بينهما ، وامتد نزاعهما الى المنافرة ، والرواة يقولون : انهما تحاكما الى أبى سفيان بن حرب الأموى فأبى أن يحكم بينهما ، ثم تحاكما الى ابن هشام المخزومى فأبى أن يحكم بينهما ، فلما استيأسا من حكم قريش تحاكما الى عبس ، وانتهى أمرهما الى هرم بن قطبة الفزارى ، وفشت قصتهما ، فتحدثت بها العرب فى الجاهلية ، وتحدثت بها فى الاسلام دهرا طويلا ، وسأل عنها عمر بن الخطاب رضى الله عنه هرما ، فأبى أن ينبئه بسرها ، فحمد عمر منه أمانته ووفاءه وكتمانه . وانتهى التحكيم بينهما بعدم تفضيل أحدهما على الآخر .

وكان الحطيئة والسندرى قد نشطا مع علقمة ابن علاثة ، ولبيد والأعشى مع عامر بن الطفيل ، ولبيد كان صادقا يدافع عن عشيرته الأقربين ، والحطيئة كان مأجورا يبيع شعره لسيده علقمة ، الذى كان برا به فى الجاهلية ، وأراد أن يكون برا به فى الاسلام ، فحال الموت بينه وبين ما أراد ، وفى ذلك يقول الحطيئة :

وما كان بينى لو لقيتك ســـالما
وبين الغنى الا ليال قلائل (١)

ويبدو أن موقف لبيد فى هذه الخصومة كان محرجا ، لانه يفضل عامرا وفى ذات الوقت لا يستطيع أن ينتقص من علقمـة ، وهو على مذهب أبى براء ، ويتضح هـذا القلق والحرج فى قوله :

وأنبش من تحت القبــور أبوة
كراما هموا شدوا على التمائما
لعبت على أكتافهــم وحجـــورهم
وليدا،وسمونى مفيدا وعاصما(٢)

فى هذه الأثناء وفى مطلع القرن السابع الميلادى كانت الأحداث فى الجزيرة العربية تتجه وجهة جديدة ، فقد مات النعمان بن المنذر ، وظهر فى العرب سيد جديد يدعو الى دين التوحيد ـ هو محمـد بن عبد اللـه صلى اللـه عليـه وسلم ـ وبنو عامر فى غفلة من هذا الأمر ، فلم يتنبهوا الا وسادة مكة قد اتبعوا هذا الدين الجديد وصاحبه .

وفيما كان بنو عامر آخـذين فى ضروب من حيـاتهم الجاهليـة زار أبو براء ـ الذى كانت زعامتـه قد أخذت تتأرجح ـ يثرب ســنة خمس وعشرين وستمائة بعـد أحد بقليل ، يذكر ابن هشـام : أن أبا براء قـدم على رسـول الله صلى الله عليـه وسلم المدينة ، فعرض عليه الرسـول الاسلام ودعاه اليه ، فلم يسلم ولم يبعد ، وقال : يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك الى أهـل نجـد فدعوهم الى أمـرك ، رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال الرســول : انى

---

(١) انظر حديث الأربعاء ص ٤٥/١ .

(٢) الديوان ص ٢٨٧ .

أخشى عليهم أهل نجد ، قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس الى أمرك . فأرسل الرسول المنذر ابن عمرو فى سبعين رجلا من قراء المسلمين ، ونزلوا عند بئر معونة - وهى بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم - وعلم بخبرهم عامر بن الطفيل ، فاستخف بجوار أبى براء ، واستصرخ عليهم بنى عامر ، فأبوا قائلين : لن نخفر أبا براء ، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم ، فأحاطوا بهم فى رحالهم ، وغدروا بهم وقتلوهم من عند آخرهم ، الا كعب بن زيد نجا حين ارتث من بين القتلى .

وقد تألم الرسول لمصاب أصحابه ؛ وشق على ابى براء اخفار عامر اياه ، وشب التنازع بين العامريين ، ووثب ابن لأبى براء على عامر فطعنه بالرمح فى فخذه فأشواه ، ولعل ابن أبى براء هذا هو ربيعة بن أبى براء الذى قال فيه حسان بن ثابت وهو يحرض بنى ابى براء على عامر ابن الطفيل :

بنى أم البنين ألم يرعكم
وأنتم من ذوائب اهل نجد ؟
تهكم عامر بأبى براء
ليخفره وما خطأ كعمد ؟
الا أبلغ ربيعة ذا المساعى
فما أحدثت فى الحدثان بعدى؟
أبوك أبو الحروب أبو براء
وخالك ماجد حكم بن سعد (١)

غير أن ابن اسحاق يقول : ان الذى حمل على عامر ابن الطفيل وطعنه بالرمح هو ربيعة بن مالك (٢) ،

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١٣٧/٣ .
(٢) المرجع السابق ١٣٧/٣ .

والخطأ فيه بين واضح ، لأن ربيعة بن مالك هو والد لبيد ، وكان قد قتل قبل هذا اليوم بأكثر من ثمانين عاما .

والحقـائق تؤكد أن لبيدا ســاءه صنيع ابن الطفيل ، وأنه وقف الى جانب عمه يشد من أزره ، من منطلق حبـه لعمه ، وايثاره العـــدالة فى الحكم واحترام الجوار ؛ وقد اصطفاه أبو براء ليكون سفيرا الى المدينة بعد بئر معونة يعتذر عن جرم ابن الطفيل ، ويطب له من دبيلة خرجت فى جوفه ، ويبعث معه هدية ، رفضها الرسول عليه الصلاة والسلام .

* * *

اسلام لبيد وحياته فى ظلال الاسلام

(١)

وفد لبيد الى المدينة بعد يوم بئر معونة ، والتقى بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ورأى عن كثب اثر هذا الدين الجديد فى نفوس معتنقيه ووحدة صفهم وجمع كلمتهم والتفافهم حول قائدهم ، رأى صورة راقته تختلف كل الاختلاف عما عليه قومه من تفكك فى الرأى واضطراب فى الامور ، فهزه ما رأى ، ومس شغاف قلبه ما ابصر ، فاطمأن لهذا الدين الاسلامى كل الاطمئنان فاسلم ، واقام فى المدينة بين ظهرانى المسلمين يحفظ من القرآن ما تسنى له حفظه أثناء اقامته ، وكتب سورة الرحمن ، ثم عاد الى قومه بدواء عمه ، ويذكر البعث والحساب والجنة والنار ، مما عرضه لذم سراقة بن عوف بن الأحوص فى قوله :

وجئت بدين الصابئين تشوبه
بالواح نجد بعد عهدك من عهد
وان لنا دارا زعمت ومرجعا
وثم اياب القارظين وذى البرد (١)

بيد أن هذا الاستنتاج تعارضه رواية تقول : انه لما أصاب عامر بن الطفيل ما أصابه بعث بنو عامر لبيدا ، وقالوا له : أقدم على هذا الرجل ـ محمد ـ واعلم لنا علمه فقدم عليه فاسلم ، وجاء قومه بذكر البعث والجنة والنار (٢) .

ويذكر المدائنى : أن لبيدا قدم على رسول الله صلى

---

(١) كان عمر يقول :« وايم الله اياب القارظين وذى البرد » ، انظر الاغانى ١٥/١٣٢ .
(٢) الاغانى ١٤/٩٠ ، ١٥/١٣٢ .

الله عليه وسلم فى وفد بنى كلاب بعد وفاة أخيه اربد وعامر بن الطفيل فاسلم وحسن اسلامه .

وهذه الرواية كما ترى تجعل اسلام لبيد فى عام الوفود ، لكن مما تجدر الاشارة اليه ان الروايات جميعها لم تشر — من قريب أو بعيد — الى أن لبيدا كان فى وفد بنى عامر الذى كان على رأسه عامر بن الطفيل واربد بن قيس .

ثم ان اعتراض هذه الرواية لا يفسد ما توصلنا اليه من أن لبيدا كان قد أسلم فى وفادته الى الرسول بالمدينة بعد بئر معونة .

اذ ليس هنالك ما يمنع أن تكون وفادته فى وفد بنى كلاب وفادة ثانية (١)، الغرض منها اسلام الوفد ، أما اسلامه فكان منذ وفادته الأولى ، وهذا ما نستشفه من قول ابن قتيبة : « وأدرك لبيد الاسلام ، وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وفد بنى كلاب فأسلموا ورجعوا الى بلادهم » (٢)

ونستشفه مما ذكره الطبرى : « أن وفد بنى كلاب وفيهم لبيد وصلوا المدينة سنة تسع ، ونزلوا دار رملة بنت الحارث ، فسلموا عليه سلام الاسلام ، ورجعوا الى بلاد قومهم » (٣) .

فابن قتيبة والطبرى يؤكدان اسلام الوفد الكلابى

---

(١) بل هى وفادة ثالثة لان لبيدا كان قد وفد الى الرسول بعد وفادته الاولى التى أسلم فيها ، مع وفد قيس ، حين اشتد الجدب على مضر وفشت المجاعة ، وانشده لبيد : « اتيناك يا خير البرية كلها » الاصابة ٥/٦٧٨ .

(٢) الشعر والشعراء ١/٢٧٥ .

(٣) تاريخ الطبرى ١٢/٣٢ .

الذى قدم فى صحبة لبيد الذى كان قد أسلم من قبل . وأن لبيدا قد أعلن اسلامه فى هذه الوفادة .

ويرشح هذا الرأى ويعضده ما ذكره ابن هشام وابن عبد البر : أن لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر وعلقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر كانا من المؤلفة قلوبهم ، وأن الرسول عليه السلام قد أعطاهما من غنائم حنين (١) .

وحنين كانت فى سنة ثمان للهجرة ، ولبيد وقتها كان مسلما ، ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يعد لبيدا من المؤلفة قلوبهم لأنه أسلم وقومه ما يزالون على جاهليتهم .

ويغلب على ظنى أن قومه كان يعلمون ذلك عنه ، وأنهم من منطلق هذا العلم اختاروه — بعد حادثة ابن الطفيل — سفيرا عنهم الى المدينة ، لقرب الصلة — فى زعمهم — بين ما يذيعه فيهم لبيد وما يحمله الدين الجديد !!

ولعل ما أذاعه لبيد فى قومه كان الدافع الى تشوقهم للاسلام ، وحضهم عامر بن الطفيل عليه ليسلموا معه بقولهم له:ان الناس قد أسلموا فأسلم،فقال:والله لقد كنت آليت الا انتهى حتى تتبع العرب عقبى ، أفأتبع أنا عقب هذا الفتى من قريش؟!وفى العام التاسع — عام الوفود — وفد الوفد العامرى يترأسه عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وحيان ابن سلمى ، وكان وفدا شاذا بين الوفود ، فقد جاء يساوم ويتحدى ، فلم ير ابن الطفيل فى رسول الله الا ما يراه فى أى زعيم قبلى ، ومن منطلق حرصه على سيادته التى كرس

---

(١) سيرة ابن هشام ٣٦٩/٤ ، الاستيعاب ١٣٣٧/٣ .

حياته لها قال للرسول عندما دعاه الى الاسلام : على ان يكون الأمر لى سنة ولك سنة ، أو يكون لى الوبر ولك المدر ، وكان قد تآمر مع أربد على الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا جعل يقاول الرسول ويشغله رجاء أن يعلوه أربد بسيفه ، فلما لم يرضه رسول الله ، قال : والله لأملأنها عليك خيلا جردا ورجالا مردا ولأربطن بكل نخلة فرسا ، وعاد ولم يسلم . وقوله هذا يدلنا على كثرة فرسان قبيلته ، هذه الكثرة التى تتجلى فى قول الرسول مجيبا عائشة حين سألته : من هذا؟.هذا عامر بن الطفيل ، والذى نفسى بيده لو أسلم فاسلمت بنو عامر معه لزاحموا قريشا على منابرهم ، ثم دعا : اللهم اهد بنى عامر واشغل عنى عامر بن الطفيل بما شئت وكيف شئت وأنى شئت .

فلما خرجوا من عند الرسول قال عامر لأربد : ويلك يا أربد أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندى على نفسى منك ، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبدا ، قال أربد : لا تعجل على ، والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره الا دخلت بينى وبين الرجل ، حتى ما أرى غيرك ، افأضربك بالسيف ؟

وكان بنى عامر على هذا كانوا يميلون الى الاسلام ، ولم يكن يصدهم الا عناد عامر بن الطفيل .

وقد أدركته دعوة الرسول عليه السلام ، فاخذت عامرا غدة مثل غدة البكر ، عقب منقلبه من المدينة فى بيت سلولية،وأما اربد فما كاد يعود الى قومه الا أصابته صاعقة فأحرقته (١) .

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام ٤٢٩/٤ ، الأغانى ١٣٢/١٥ ، الشعر والشعراء ٢٧٨/١ . ويقول لبيد فى وفاة اربد :

اخشى على اربد الحتوف ولا ... ارهب نوء السماك والأسد
فجعنى الرعد والصواعق يا ... فارس يوم الكريهة النجد

نستطيع أن نؤكد اذن على أن لبيدا قد أسلم فى العام الرابع للهجرة بعد بئر معونة وأن الرسول شاء له أن يكون من المؤلفة قلوبهم ، لأن قومه لم يكونوا قد أسلموا بعد . وأن لبيدا أعلن اسلامه فى العام التاسع للهجرة مع وفد بنى كلاب ، لا وفد بنى عامر .

ويكون لبيد - على هذا - قد أسلم وهو ابن ثلاث أو اربع وثمانين سنة ، وأعلن اسلامه وهو ابن تسع وثمانين أو تسعين سنة .

ومن ثم نتفق مع جل الرواة الذين يؤكدون أنه أسلم فى التسعين من عمره ، وان كنت أعتبر هذه المدة الزمنية ميقاتا لاعلانه الاسلام .

(٢)

عاد لبيد الى قبيلته ناسكا مسلما ، الى أن كان عهد عمر بن الخطاب ، وكان لبيد قد أوغل فى الحياة الاسلامية ، وألم بجوانبها ، فلما خط عمر الكوفة - والمعروف أن الكوفة خططت فى سنة سبع عشرة للهجرة - (١) لم يطل به المقام بين ظهرانى قومه ، ونزح هو وبنوه الى الكوفة ، وأقام بها ، وقيد اسمه فى ديوان العطاء ، وقد نقل لبيد الى الكوفة كرمه القديم ، والأخبار التى تروى عن حياته فى الكوفة ، تصوره كلها رجلا كريم النفس ، صافى الطبع ، حلو الشمائل ، لم يستبق من عاداته فى الجاهلية الا ما يقره الاسلام ، فهو كريم جواد ، لأن الاسلام يحبذ الكرم ويدعو الى الجود ، وهو معرض عن الفخر ، الذى كاد يكون صناعته فى الجاهلية ، بقومه لأن الاسلام يدعو الى صلة الرحم ، فاذا سمع من يعيبهم رده ردا حازما رفيقا ، ثم استغفر الله من الفخر ؛ ولهذا وصفه ابن سلام

(١) تاريخ الطبرى ٣/١٥٢ .

بقوله : « وكان مسلماً رجل صدق » (١) . فأما كرمه فقد تحدث به الولاة على المنابر ، اذ ظل وفيا بنذره الذى قطعه على نفسه فى الجاهلية ، وهو الا تهب الصبا الا أطعم الناس ، وحرص على الوفاء به فى الاسلام ، على الرغم من دخله المحدود ، يروى الرواة : أن المغيرة بن شعبة كان اذا هبت الصبا خطب الناس ، فقال لهم : أعينوا أبا عقيل على مروءته (٢) ، ويروون : أن الصبا هبت يوما — ولبيد مملق — والوليد بن عقبة على الكوفة ، فصعد الوليد المنبر فخطب الناس ، فقال : ان أخاكم لبيد بن ربيعة قد نذر فى الجاهلية الا تهب صبا الا أطعم ، وهذا يوم من أيامه فأعينوه ، وأنا أول من فعل ، ثم نزل عن المنبر ، فبعث اليه بمائة بكرة ، وكتب اليه بأبيات قالها :

أرى الجزار يشحذ شفرتيه
اذا هبت رياح أبى عقيل

أشم الأنف أصيد عامرى
طويل الباع كالسيف الصقيل

وفى ابن الجعفرى بحلفتيه
على العلات والمال القليل

بنحر الكوم اذ سحبت عليه
ذيول صبا تجاذب بالأصيل

فقال لبيد لابنته : أجيبيه فلعمرى لقد عشت برهة وما أعيا بجواب شاعر !! فقالت :

اذا هبت رياح أبى عقيل
دعونا عند هبتها الوليدا

---

(١) طبقات الشعراء ص ٤٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٨ .

أشـــم الأنف أروع عبشـميا
اعـان على مـروءته لبيـــدا
بأمثـال الهضـاب كان ركبـا
عليهـا من بنى حام قعـــودا
ابا وهب جزاك اللـــه خيرا
نحـرناها فأطعمنـــا الثريدا
فعـد ان الـكريم لـه معـــاد
وظنى بابن أروى أن يعـــودا

فقال لها أبوهـا : أحسنت ، لولا انك اسـتطعمته . فقالت : ان الملوك لا يستحيا من مسالتهم ، فقال : وانت فى هذه أشعر (١) .

وأما عن اعراضـه عن الفخر فقد تبين لنـا من كثرة قراءته القرآن الكريم ، وقضائه جل وقته فى المسجد ، فاذا ما أثاره احـد الى ذكر شىء من الفخر القـديم ذكره ، ثم استغفر اللـه كثيرا ، ذكر صاحب الأغانى : (أن الوليـد ابن عقبة سأل لبيدا عما كان بينـه وبين الربيع بن زياد بن النعمان ، فقال له لبيد : هذا كان من أمر الجاهلية ، وقد جاء الله بالاسـلام ، فقال له : عزمت عليك ــ وكانوا يرون لعزمة الأمير حقا ــ فجعل يحدثهم ، فحسده رجـل من غنى ، فقال : ما علمنا بهذا ، قال : أجل يا ابن أخى لم يدرك أبوك مثـل ذلك ، وكان ابوك ممن لم يشـهد تلك المشاهد فيحدثك) (٢) ، كما أخبر : انه لم يسمع من لبيد فخره فى الاسلام غير يوم واحد ، فانه كان فى رحبة غنى مستلقيا على ظهره ، قد سجى نفسه بثوبه ، اذ أقبل عليه شاب من غنى ، فقال : قبح الله طفيلا حيث يقول :

---

(١) الأغانى ٩٧/١٤ وما بعدها ، الشعر والشـعراء ٢٧٦/١ ، الكامل للمبرد ٦٣/٣ ، اسد الغابة ٢٦١/٤ ، وغيرها .
(٢) الأغانى ٩٣/١٤ .

جزى الله عنا جعفرا حيث أشرفت
بنا نعلنا فى الواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا
تلاقى الذى يلقون منا لملت
فذو المال موفور وكل معصب
الى حجرات أدفأت وأظلت
وقالت : هلموا الدار حتى تبينوا
وتنجلى العمياء عما تجلت

ليت شعرى ما الذى راى من آل جعفر حتى يقول هذا فيهم !! قال : فكشف لبيد الثوب عن وجهه وقال : يا ابن أخى انك لو أدركت الناس وقد جعلت لهم شرطة يدعون بعضهم عن بعض ، ودار رزق يخرج الخادم بجرابها فتاتى برزق أهلها ، وبيت مال يأخذون منه أعطيتهم ، ولو أدركت طفيلا يوم يقول هذا لم تلمه ، ثم استلقى وهو يستغفر الله » (١) .

ومن هنا نستطيع أن نتصور الأثر العميق الذى تركه الاسلام فى نفس ابن ربيعة . وقد امتدت الحياة بلبيد ، حتى سئمها ، وأعلن هذا السأم فى قوله :

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس : كيف لبيد ؟

وهو لذلك يعد من المعمرين .

وهنا يتراءى لى أن الح الى ما ذكره الرواة من أن لبيدا لم يكن له ولد ذكر ، وأنه « لما حضرته الوفاة ، قال لابن أخيه - ولم يكن له ولد ذكر - يا بنى ان أباك لم يمت ولكنه فنى ، فاذا قبض أبوك » ثم أنشد قوله :

---

(١) الأغانى ١٤/٩٣ .

واذا دفنت اباك فاجعل فرقه خشبا وطينا (١)

والعجب من قول الرواة هـذا ، لم لا يكون المخاطب ولد لبيد الذى تكنى به ـ عقيل ـ ؟ الا ترى معى انه يخاطبه بقـوله : « يا بنى » ، وبقـوله : « واذا دفنت اباك » ؟ ان المخاطب ان لم يكن ولـده لخاطبه لبيـد بقوله : « يا ابن أخى » ، أضف الى ذلك ما ذكرته الرواية القائلة : بأن لبيدا قدم مع بنيه ، وأن بنيه عادوا بعد هجرتهم أعرابا » (٢) ٠

وهم مجمعون على أن للبيد بنتين ، وهما اللتان قال لهما عند احتضاره :

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما
وهل أنا الا من ربيعة أو مضر ؟

وهاتان البنتان لعلهما بسرة وأسماء اللتان يذكرهما فى شعره ، كما فى قوله :

وأبوك بسر لا يفنـد عمـــره
والى بلى ما يرجعن جديد (٣)

وقوله :

طافت أسـيماء بالرحال فقـد
هيج منى خيالهـا طـربا (٤)

وتدرك لبيدا أمنيته بالكوفة ، ويدفن فيها ،بعد حياة طويلة اختلفحول تحديدهاالمؤرخون والراوة ، فمنهم من

(١) الأغانى ١٤/٩٧ ٠
(٢) أنظر الشعر والشعراء ١/٢٧٥ ، الاصابة ٥/٦٧٦ ٠
(٣) الديوان ص ٣٥ ٠
(٤) الديوان ص ٢٥ ٠

يجعل وفاته فى أول خلافة معاوية عام واحد وأربعين للهجرة يوم دخل معاوية الكوفة وتسلم الخلافة من الحسن بن على رضى الله عنهمـا (١) . ومنهم من يجعل وفاته فى آخر خلافة معاوية (٢) .

ومحقق الديوان يفترض أنه لم يدرك عهد على أو عهد معـاوية ، وأنه توفى فى أيام عثمان (٣) ومن ثم تختلف المدة الزمنية التى عاشها طولا وقصرا حسب كل رواية ، على أنهم متفقون على أن لبيدا كان من المعمرين .

والرأى عندى أن لبيدا لم يمت فى عهد عثمان ، ولا فى أول خلافة معاوية ولا فى آخرها ، وأنه قضى نحبه فى خلافة معاوية سنة احدى وخمسين للهجرة .

اذ أن الذين يجعلون وفاتـه فى أول خـلافة معاوية يقولون : ان معاوية أراد أن يحط عطاء لبيد الى حيث كان قبل أن يزيده عمر ، فكتب بذلك الى زياد بن أبيه ـ عامله على الكوفة ـ قائلا : ما بال العلاوة بين العدلين ؟ فجاء لبيـد ليأخذ عطاءه . فقال زياد : أبا عقيل ، هذان الخرجان ـ يعنى الألفين ـ فما بال العـلاوة ؟! قال : الحق العـلاوة بالخرجين ، فانك لا تلبث الا قليلا حتى يصير لك الخرجان والعلاوة . فأعطاه زياد الفين وخمسمائة ولم يعطها غيره ؛ فما أخذ عطاء آخر حتى مات رحمه الله (٤) .

وهذا القول حجة لنا عليهم ، لأن زياد بن أبيه ما كان من ولاة معاوية الا فى سنة خمس وأربعين للهجرة ، حين

---

(١) الشعر والشعراء ٢٧٥/١ ، وطبقات ابن سـعد ، والاصابة ٦٧٦/٥ .

(٢) الأغانى ٩٠/١٤ .

(٣) مقدمة الديوان ص ٢٩ .

(٤) انظر : المعمرون والوصايا ص ٧٦ وما بعدها .

ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان ، ثم ضم اليه الكوفة حين مات واليها المغيرة بن شعبة فى سنة خمسين للهجرة (١)

ومعنى هذا أن لبيدا قدم الى والى الكوفة ـ زياد ابن أبيه ـ فى مطلع سنة احدى وخمسين ، فدار بينهما الحوار السالف الذكر ، ولم يأخذ لبيد عطاء آخر لأنه مات فى نفس السنة .

ومن العجب العجاب أن أجد بين الذين يجعلون سنة احدى وأربعين سنة وفاته من يقرر أن لبيدا قضى من عمره فى الاسلام خمسا وخمسين سنة (٢) وفيه ـ كما ترى ـ لبس كثير ، اذ يترتب عليه أن يكون لبيد قد أسلم قبل الاسلام !! وهذا وهم وغفلة .

والذى تقرر الآن يدمغ افتراض محقق الديوان ، ليبقى للرد عليه الرأى الذى يجعل وفاته فى آخر خلافة معاوية ، والرد عليه سهل ميسور ، ويكفى أن نقرأ ما رواه أبو الفرج الأصفهانى وأبو حاتم السجستانى وابن حجر العسقلانى ، عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تنشد بيت لبيد :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم
وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

ثم تقول : رحم الله لبيدا ، فكيف لو أدرك زماننا هذا ؟! وفى رواية أبى الفرج : فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ؟!

---

(١) الطبرى ١٤٣/٤ وما بعدها .
(٢) انظر الاصابة ٦٧٩/٥ .

فعائشة رضوان اللـــه عليها تترحم على لبيـد وهى تتمثل بقوله ، وهذا يعنى أن لبيدا قد مات فى حياة عائشة التى توفيت فى سـنة ثمان وخمسين للهجرة فى خـلافة معاوية ؛ ولو كانت وفاته فى آخر خـلافة معاوية لما تأتى هذا القول من عائشة رضى الله عنها . ومن ثم تكون وفاته فى سنة احدى وخمسين للهجرة ، بعد حياة حافلة امتدت مائة وثنتين أو ثلاثا وثلاثين سـنة (١) ، قضى منهـا فى الاســلام سبعا وأربعين سنة باضافة السنين الخمس التى كان فيها مسلما وشاء له الرسول عليه الصلاة والسلام فى أثنائها أن يكون من المؤلفة قلوبهم .

لهذا العمر الطويل عـد لبيد من المعمرين ، اذ كانت العرب لا تعد معمرا الا من عاش مائة وعشرين فما فوقها ، وقيل مائة ستة وستا وعشرين سنة فصاعـدا (٢) وليرحم الله لبيدا الجواد المسلم والشاعر المخضرم .

* * *

---

(١) وهذا قريب من قول ابن الكلبى وغيره الذى قال : « عاش لبيد ثلاثين ومائة سنة » المعمرون والوصايا ص ٧٦ .

(٢) انظر : كتاب المعمرين من العرب ص ١ .

القسم الثاني

شاعرية لبيد وشعره

١ ـ شاعرية لبيد وشعره ، وموقف أولى البصر منهما

٢ ـ شعر لبيد فى الجاهلية وأبرز فنونه

٣ ـ المنهجية فى شعر لبيد الجاهلى

شـــاعرية لبيـــد وشـــعره

وموقف أولى البصر منهما

تفتحت موهبة الشعر عن اكمامها فى نفس لبيد مبكرة، وتفجرت ينابيعها فى صدره وهو صبى ، بدليل ما ذكـره الأصفهانى « كان لبيد يقول الشعر ويقول لا تظهروه ، حتى قال :

(عفت الديار محلهـا فمقامها) فقـــال لهم حينئذ : أظهروه» (١) .

وظل شعره طي قبيلته قابعا فى دائرتها لأنه لم يكن شديد الثقة فى أشعاره ، الى أن وقف من الربيـع بن زياد موقفه الرائع بين يدى النعمان بن المنـــذر فانفتحت أمامه أبواب الشهرة والذيوع على مصاريعها ، واصبح لســـان القبيلة . وكان هذا الحدث العظيم قد حدد موقف لبيد من الشعر ، وقوى الحوافز القبلية فى نفسه ، مما كان له أثره الذى لا يجحد فى حياته الشعرية .

بيد أن هذا التقدير تعترض طريقه رواية ذائعة تجعل هذه الواقعة بداية عهد لبيد بالشعر ، وتصوره غلاما حدثا بين أعمامه يلهو ويلعب ، ويخلفهم فى رحالهـــم ، يحفظ أمتعتهم ، ويغدو بابلهم فيرعاها ، ولذلك ابتلاه أعمـــامه وامتحنوا مقدرته بوصف البقلة الترية ، ولم تغن اجـادته فى وصف البقلة عندهم فتيلا ، فقد زعموا أنه انمـا تكلم بما جرى على لسانه ، وانظروه حتى يصبحوا ، ولهذا باتوا يرقبونه ويرمقونه ، فلما رأوا أن الغلام أرق لهـذا الموقف ليله كله أيقنوا انه ند الربيع ، وحلقوا رأســه وتركـوا له ذؤابتين والبسوه حلة ، وغدوا به معهم على النعمان ، وكان

---

(١) الأغانى ٩٣/١٤ .

لبيد قد دهن أحد شقى رأسه ، وأرخى أزاره وانتعل نعــلا واحدة ، فلما أذن لهم دخلوا فاذا الملك على طعامه ، ومعــه صفيه الربيع بن زياد ، فرجز به لبيد رجزا ممضا مؤلـــا ، منه : مهلا – أبيت اللعن – لا تأكل معه ، فلم يكد النعمــان يسمع هذا الرجز حتى تأذى والتفت الى الربيع يرمقه شزرا ، وكف عن الطعام ، وأقبل على بنى جعفر (١) .

والرواية تثبت تفوق لبيد على الندماء ، وقيامه من قومه مقام المحامى الذائد ، وتدلنا على طبيعة لبيد حين كان ينظم الشعر ، والسنن المرعيــة فى مواقف الانشـــاد ، وعلى الأخص الهجاء .

الا أنها تنخرم عندنا من اصرارها على أن رجز لبيد فى الربيع كان أول ما جادت به قريحته فى دنيــا القروض ، وعلى انه كان حينئذ غلاما صغيرا حدثا .

اذ أن من المعروف أن النعمان توج ملكا حوالى ســنة اثنتين وثمانين وخمسمائة (٢) ويكون عمر لبيد آنئذ لا يقل عن تسع وثلاثين سنة ، فلم يكن صبيا ، وانما كان فى أوج شبابه المتشوف من كثب الى مطالع الشيخوخة كما تســفر الحقائق ؛ ومن ثم تكون هذه القصة قد حدثت ولبيـــد قــد طبقت شهرته الشعرية الآفاق .

يعضد هذا الرأى ويقويه ما روى عن حمـــاد الراويـــة « نظر النابغة الذبيانى الى لبيد بن ربيعة وهــو صــبى مع أعمامه على باب النعمان بن المنذر ، فسأل عنه ، فنسب له ، فقال له : ياغلام ان عينيك لعينا شاعر ، أفتقرض من الشعر شيئا ؟ قال : نعم يا عم ، قال : فانشدنى شـيئا مما قلتـــه . فانشده قوله : « ألم تربع على الدمن الخوالى ؟ » فقال له :

---

(١) أمالى المرتضى ١٩٠/١ وما بعدها .
(٢) انظر المرجع السابق ١٨٩/١ .

يا غلام انت اشعر بنى عامر ، زدنى فانشده « طلل لخـولة بالرسيس قديم » فضرب بيديه الى جنبيه وقال : اذهب فانت أشعر من قيس كلها ، أو قال : من هوازن كلها .

وقد زادت هذه الرواية « أن لبيدا ينشده قوله : (عفت الديار محلها فمقامها) فقال له النابغة : اذهب فانت اشعر العرب »(١) .

وهنا يروق لى ما قاله الدكتور احسان عباس : « ان هذه الرواية صنو لتلك من ناحية ومكملة لها من ناحية أخـرى ، صنو لها لأنها تفترض أيضا أن لبيـدا كان صـبيا على باب النعمان ، ومخالفة لها لأنها تفترض أنه كان قد قال قصيدتين أو ثلاثا من أجمل شعره ، وأولى القصائد الثلاث مما يمكن أن ينسب الى الفترة التى عاشها قبل اغترابه الى اليمن ، أما الاثنتان الأخـريان فانه قالهمـا بعـد تميـز عامـر ابن الطفيل ، وفى الثانية يذكر يوم الذهاب ، وهـو من الأيام التى كان بطلها عامر المذكور ، ومن الاغفال للناحية التاريخية أن يقال : ان لبيـدا كان حينئذ غلاما على باب النعمان »(٢) .

وقد ظلت هذه الشاعرية الفذة والموهبة الصادقة تقوى فى نفسه وتتاجج حتى أصبح — باجماع الرواة — واحدا من شعراء المعلقات ، بقصيدته التى مطلعها :(٣)

عفت الديار محلهـا فمقامهـا
بمنى تابـد غولهـا فرجامهـا
فمدافع الريان عرى رسـمها
خلقا كما ضمن الوحى سلامها

(١) الأغانى ٩٧/١٤ .
(٢) مقدمة الديوان ص ٢١ .
(٣) الديوان ص ٢٩٧ .

ومعلقته هذه معدودة — بالاجماع — من الشعر الرفيع الدرجة ٠

وشاعرية لبيد ظلت متاججة فى صدره طوال حياته فى جاهليته واسلامه ؛ هذه الشاعرية جعلت الفرزدق يسجد عندما سمع رجلا ينشد قول لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كانها
زبر تجد متونهـا اقلامهـا

ولما انكر الناس منه ذلك بقولهم : ما هذا يا ابا فراس؟! قال : أنتم تعرفون سجدة القرآن ، وانا اعرف سجدة الشعر(١) ٠

وهذا التشبيه لبقايا الأطلال فى دقتها وتتابعها واستطالة اعلامها كانها سطور فى كتاب ، يعتبره البلاغيون وأهل الذوق من التشبيهات العالية الطبقة ، ناهيك بهذه الموسيقى المنبعثة من الملاءمة بين كلمتى « السيول والطلول » ، وهذا وذاك جعلا الفرزدق يسجد هذه السجدة للبيت ٠

* * *

تدفقت هذه الشاعرية الملهمة فى ينابيع شعر لبيد ، فجاء شعره متقنا ، ملء ردائه الابداع ، وطى دثاره الخلابة ، يزهو باشراق الديباجة ، ويميس بصفاء النغم والجرس الموسيقى الأخاذ ٠ ويتالق فى تاجيه اللذين صاغهما الجمال والجلال ٠

واذا كان الشعر عند لبيد تجاوبا مع أصداء نفسه فانه

---

(١) انظر الاصابة ١/٦٨٠ ، الأغانى ١٤/٩٥ ٠

كان من جهة أخرى وسيلة لغاية ، فقد اختار الشعر وسـيلة للظهور والتالق فى مجتمعه حين اختار غيره من أبناء قومه لهذه الغاية طريق الزعامة او الحرب ، مما مكن له فى دولة الشعر ، واعلى كعبه فى عالم القريض ، وكان للخطابة التى يملك مقوماتها وللرجز الذى تثنى على يديه أزمتـه الأثـر الفعال فى تمكين شهرته فى مضمار الشعر ، وتفوقه على كل من عاصره من أبناء قومه الشـعراء ، من أمثـال : خداش ابن زهير وعامر بن الطفيل والأحوص وابنه عوف ومعـود الحكماء وغيرهم .

وشهرته هذه لم تكن من فراغ ، فقد شهد له النابغـة الذبيانى — فى رواية — بأنه « أشعر العرب » وسجد الفرزدق حين سمع بيتا له (١) وهـو — بلا ريب — أحـد أصـحاب المعلقات ، ثم ان شعره — فيما بعد — قد نال حظوة واعجابا واسعين ، فهذا ابن سريج المغنى يغنى أبياتا من معلقتـه ، والأبجر يغنى فى احدى مرثيـاته لاربـد ، وبعض المغنين يغنى المعتصم قوله :

وبنـو العبـاس لا يأتـون لا
وعـلى ألسـنتهم خفت نعـم
زينت أحـلامهم أحسـابهم
وكذاك الحـلم زيـن للكـرم

فيقول المعتصم : لمن هذا الشعر ؟ قال : للبيـد ، قال وما للبيد وبنى العباس ؟

قال المغنى : انما قـال : وبنو الريـان ، فجعلتـه وبنو العباس . فاستحسن فعله ووصله ، وكان المعتصم يعجب بشعر لبيد فاستنشد الحاضرين قوله :« بلينا وما تبلى النجوم الطوالع » فانشدوه اياها ، فبكى المعتصم حتى جرت دموعه ،

(١) انظر : الأغانى ١٤/٩٥ ، ٩٧ .

وترحم على المأمون وقال : هكذا كان رحمة الله عليه ، ثم اندفع ينشد بقية أبيات القصيدة (١) ، ويغنى حنين رائعة لبيد هـــذه ٠

ولاسحاق الموصلى غناء فى أبيات لبيد التى رثى فيها نفسه قبيل موته ، والتى اولها :

ابنى هل ابصرت اعمامى بنى أم البنينا ؟! (٢)

ولعل إقبال المغنين والملحنين على شعره راجـع الى هذه الثروة من الحزن والأسى ، المنبثة فى تضـــاعيفه ، والتى تلائم الألحان الشجية الحزينـــة ، وتشـــاكل انات الأسى ٠

وأمر ذيوع شعر لبيد لم يقف عند هذا الحـــد ، فقد راجت بعض أبيات له رواجا عظيما ، وأضحت أمثالا سائرة يتمثل بها الناس ، من ذلك ، أن السيدة عائشة رضى الله عنها كانت تتمثل بقوله :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم
وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

وتقول : رحم الله لبيدا فكيـف لـو أدرك زماننـــا هـــذا ؟! (٣)

ويتمثل كذلك بقوله فى لاميته التى اولها : « ان تقوى ربنا خير نفل » :

---

(١) انظر الأغانى ١٤/٩٥ ، ٩٦ ٠
(٢) الديوان ص ٣٢٢ ٠
(٣) الاصابة ٥/٦٨٠ ، الاستيعاب ٣/١٣٣٧ ٠

واكذب النفس اذا حدثتها
ان صدق النفس يزرى بالأمل ..
فاذا جوزيت قرضا فاجزه
انما يجزى الفتى ليس الجمل

وقوله :

قوم لهم عرفت معد فضلها
والحق يعرفه ذوو الألباب

وكثيرا ما يتمثل بقوله :

الا كل شيء ما خلا الله باطل
وكل نعيم لا محالة زائل

وبقوله :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

الى غير ذلك من شواهد الاعجاب التى تدل على تألق شعره فى صدق تجربته وعمقها وفيضان عاطفته وتأججها ونبل مشاعره ورقتها وبروز ذاتيته وشموخ انسانيته .

ثم ان علماء النحو قد وجدوا فى شعر لبيد ميدانا لشواهدهم ، لما فيه من ثروة هائلة ، فاستشهدوا بكثير من أبياته ، على غرار استشهادهم بقوله :

وما المرء الا كالشهاب وضوئه
يحور رمادا بعد اذ هو ساطع

على أن « حار » من الأفعال الناقصة التى تستعمل بمعنى صار . وبقوله :

فان حان يوما أن يموت أبوكما
فلا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر

على أن التنوين قد يحذف من الاسم المنصوب الذى لم يمنع من الصرف . وبقوله :

فأرسلها العراك ولم يذدها
ولم يشفق على نغض الدخال

على مجىء الحال جامدة مؤولة بالمشتق (أى معتركة). وبقوله :

رأيت التقى والجود خير تجارة
رباحا اذ ما المرء أصبح ثاقلا

على استعمال « رأيت » بمعنى علمت الناصبة للمفعولين . وبقوله :

حتى تهجر فى الرواح وهاجه
طلب المعقب حقه المظلوم

على أن « المظلوم » بالرفع صفة للمعقب باعتبار محله لأنه مضاف الى طلب من اضافة المصدر الى فاعله . وبقوله :

الا تسالان المرء ماذا يحاول ؟
أنحب فيقضى أم ضلال وباطل ؟

على أن « ما » اسم استفهام مبتدأ غير مركبة مع ذا ،

وهى اسم موصول خبر ، بدليل رفع البدل وهو « نحب »
ولو كانت « ذا » مركبة مع « ما » لوجب أن تكون فى محل
نصب بالفعل بعـدها ، وكان يجب اذن أن ينصب البـدل
وهو « نحب » . الى غير هذه من شواهد أصحاب النحو ،
وقد ساعد هذا الجانب بالطبع على ترديد بعض شـعره
وذيوعه .

***

شعر لبيد فى الجاهلية وأبرز فنونه

لشعر لبيد مرحلتان : تمثل أولاهما تلك الفترة التى قضاها فى الجاهلية ، وثانيتهما هذه الفترة التى عاشها فى الاسلام ، ولن يتسنى لنا الحديث عنها الا بعد تقريرها، فهى لب البحث وجوهره ٠

فأما شعره فى الفترة الأولى فانه ينهض على الفخر والرثاء غالبا ، فقد كان لبيد فى الجاهلية ــ كما يقول ابن سلام ــ : خير شاعر لقومه يمدحهم ويرثيهم ، ويعد أيامهم ووقائعهم وفرسانهم (١) ٠

ولعل هذا المذهب الشعرى الذى اصطنعه لبيد لنفسه انما يرجع الى تأثره بنشأته ، تلك النشأة التى جعلته فخورا ملحا فى الفخر ، يكاد يتورط فى الغلو والاسراف ، مولعا بنفسه يشيد بفتوته وقوته وترفعه وابائه ، وتجشمه للأهوال ، واقباله على اللهو ، وكرمه وجوده ، وايثاره لاخوان الصدق ، وكسره شرة الخصم الألد ، وهذه النشأة جعلته فخورا بآبائه وأمجادهم ومآثر قومه ، ومشيدا بأيامهم وجحاجح سادتهم وصناديد فرسانهم ، وجملة مالهم من مناقب الشرف والسيادة فى الجاهلية ، على غرار رائيته التى مطلعها (٢) :

أعاذل قومى فاعذلى الآن أو ذرى
فلست وان أقصرت عنى بمقصر

والتى ذكر فيها ما يربو على ستة وعشرين اسما من آبائه وسادات قومه ، الذين يقول فيهم :

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٤٨ ٠

(٢) الديوان ص ٤٦ ٠

شـهاب حروب لا تزال جياده
عصائب رهوا كالقطـا المتبكر

وبائيته التى مطلعها (١) :

أرى النفس لجت فى رجـاء مكذب
وقد جربت لو تقتدى بالمجرب

والتى تناول فيها نفسه من جميع جوانبها ، وكشف عن صفاته ، كما فى قوله :

وعان فككت الكبل عنه وسدفة
سريت وأصحابى هديت بكوكب
ودعوة مرهوب اجبت وطعنة
رفعت بها أصوات نوح مسلب

وكقوله فى معلقته (٢) :

انا اذا التقت المجـامع لم يزل
منـا لزاز عشـيرة جشـامها
ومقسم يعطى العشـيرة حقها
ومغـذمر لحقوقهـا هضامها
فضلا،وذو كرم يعين على الندى
سـمح كسوب رغائب غنامهـا
مـن معشر سـنت لهم آباؤهم
ولـكل قـوم سـنة وامامها
لا يطبعـون ولا يبور فعالهم
اذ لا يميل فى الهوى أحلامهـا

(١) الديوان ص ٣ .
(٢) الديوان ص ٢٩٧ .

وهم السعاة اذا العشيرة أفظعت
وهمو فوارسها وهم حكامها

ومن هنا ففخر لبيد وقف على اعتداده بنفسه وقومه ؛ ولبيد لم يتجاوز هذا الفخر الى مدح الملوك ولا الى هجاء السوقة ، فلم يكن بحال مداحا ولا هجاء ، ولا من المتكسبين بالشعر .

وقلما كان يعنى بذكر المرأة فى مطالع أشعاره ، فما كان للغزل مقام – أى مقام – فى شعره ، ولعل أطول مقدمة غزلية هى مقدمة رائيته (١) التى تنم على انه لم يذكر المرأة على أنها تيمته وسلبته لبه واصبت فؤاده ، وانما ذكرها على انها تعيره بالمشيب الذى جلل رأسه فاشتعل منه ، وبالكبر الذى حل بساحته فاقصى عنه ميعة الشباب ، يقول :

راح القطين بهجر بعد ما ابتكروا
فما تواصله سلمى وما تذر
منأى الفرور فما ياتى المريد وما
يسلو الصدود اذا ما كان يقتدر

الى ان يقول :

وفى الحدوج عروب غير فاحشة
ريا الروادف يعشى دونها البصر
كأن فاها اذا ما الليل ألبسها
سيابة (٢) ما بها عيب ولا أثر
قالت غداة التقينا عند جارتها
أنت الذى كنت لولا الشيب والكبر !!

---

(١) الديوان ص ٥٨ .
(٢) السيابة : اراد ان ريح فيها كالبلح .

الا ترى أن سـلمى قد هجرته ، وما أبقت على وصله فى شىء ، وفرت منه فرار الدابة من صاحبها ؟!!

ثم ألسـت معى فى أن اللون الغزلى عنـده باهت ولذلك ينتقل منه سريعا الى الوصف الذى يجيده ، فللبيد باع لا تجحـد فى فن الوصف ، وفى شـعره حظ لا يخفى للطبيعة ومظاهرها من شمس وغيث ونخيل وموارد مياه بين الصـفا وخليج العين ، وألوان النبـات وما يتزين به الزهـر من حمرة وخضرة وصفرة ، وما تكسـوه الشمس باشراقها من البهجة والروعة وتمام الحسن ، كما فى قوله يصف النخل وقد دلت من ثقلها وكثرة حملها فكرعت فى المـاء المتفجـر بين الصـفا وخيلج العيـن ، والنخـل – على الرغم من طولها – سواجد ، أى مائلة الرءوس نحو الماء ، فلم يصبها العطش ، فى رائيته السابقة :

يشربن رفهـا عـراكا غير صـادرة
فكلهـا كـارع فى المـاء مغتمـر
بين الصـفا وخيلج العين سـاكنة
غلب سـواجد لم يدخل بها الحصر

وفى قوله يصور جمال الطبيعة وسحرها ، وأثر الغيث فى هذا الوادى الجميل :

وغيـث بدكـداك يزين وهـاده
نبـات كوشى العبقـرى المخلب
أربت عليـه كل وطفـاء جـونة
هتوف متى ينزف لها الوبل تسكب (١)

---

(١) الدكداك : ما ارتفع واستوى من الارض . العبقرى : منسوب الى ارض يقال لها عبقر . المخلب : المخطط بالوان الصبغ . اربت : اقامت . الوطفاء : السحابة . الجونة : السوداء . الهتوف : التى فيها صوت من الرعد . ينزف : يذهب ، اى : اذا ذهب الوبل سكبت .

بذى بهجة كن المقانب صوبه
وزينه ألوان نور مشرب

جلاه طلوع الشمس لما هبطته
وأشرفت من قضفانه فوق مرقب

بسرت نداه لم تسرب وحوشه
بغرب كجذع الهاجرى المشذب

بمطرد جلس علته طريقة
لسمك عظام عرضت لم تنصب

رفيع اللبان مطمئنا عذاره
على خد منحوض الغرارين صلب

فلما تغشى كل ثغر ظلامه
والقت يدا فى كافر مسى مغرب

تجافيت عنه واتقانى عنانه
بشد من التقريب عجلان ملهب (١)

ان هذا الوصف الرائع يدل على استمتاع أصيل بالطبيعة ، وروعته توحى بأن الشاعر لم يول المرأة ومشاعر الحب إهتماما كبيرا .

واذا كان للطبيعة ومظاهرها فى شعر لبيد هذا الحظ

---

(١) المقانب : جماعات الخيل . القضفان : المرتفعات والنشوز . المرقب : اعلى الجبل . بسرت نداه : كنت اول من اتاه . الغرب : حد كل شىء وهو هنا الفرس . الهاجرى : الحضرى . المشذب : المقشور عنه ليفه ، وهو يصف طول عنق فرسه . المطرد : المهتز لنشاطه . الجلس : الغليظ . الطريقة : المتن وما امتد منه . سمك العظام : ارتفاعها . لم تنصب : لم تسو فى ارتفاع ، وذلك أشد لقوائم الفرس . اللبان : الصدر . المنحوض : القليل اللحم . الغرار : الجانب . الثغر : الطريق . الكافر : الليل . والضمير فى ألقت يعود على الشمس . مسى مغرب : وقت غروبها . تجافيت عنه : ارتفعت عن سرجه . الشد : الجرى . التقريب : فوق المشى . عجلان ملهب : مضطرم من شدة العدو كما تلهب النار .

المذكور فقد كان للناقة الحظ الأوفر ، هــذه التى حظيت بالشهرة والذيوع فى الشعر الجاهلى ، اذ أطال فى وصفها ، فناقتــه قوية سريعة كانها الســحاب قد أراق ماءه فخف واستسلم لأيسر الريح ، وكانها حين يدفع بها فى الأسفار هذه الأتان الوحشية التى ظهر عليها الحمل ، وقد خلصت لفحلها بعد أن ازدحمت عليها الفحول ، وكثر فيما بينهــا الخصام ، ثم ثارت فى راسه الشكوك ، وانتفضت فى نفسه الغيرة ، ففضل حياة العزلة ، فاسرعا يعدوان فى مطاردة ومضاربة ، تثير العثير ويثيره ، حتى يبلغا هــذه الربوة التى انحسر عنها الشتاء ، والتى عبثت بها الريح ، والتى فيها عين ثرة تفيض بالماء . الى جانب أن لبيــدا قد جمع لناقته من الملامح الانسانية ما يكاد ينسينا انه حديث عــن الناقة ، ولكن عن علاقة الانسان بالحياة ، فى قصة تملؤها الحياة والعاطفة والصراع فى سبيل البقــاء ، والخوف من المصير المجهول، هى قصة هذه البقرة الوحشية البائســة — التى تشــبه ناقتــه فى قوتها وتحملها — التى عدت على طفلها — خشفها — العوادى فاكله السبع ، فهى تلتمسه فلا تجده ، وتلح فى التماســه ، فتفعل ذلك فى النهــار وفى الليل ، ولكن الظلمة والعاصفة وما تثيره من مطر غزير ، وما تنشره من برد قارس ، كل ذلك يقعدها ، بيد أن اليأس لم يعرف طريقه الى قلبها ، فاذا ما انجلى الليــل وتنفس الصبح اندفعت باحثة صارخة ملتاعة ، وهيهات هيهات !! فقد أكل السبع ابنها ، ولم يبق منه الا أشــلاء ممزقة قد طرحت على رمل المفازة .

وبيّنا هى غارقة فى هذا الخضم من الأحاسيس الحزينة المرتاعة الملتاعة اذا بالقدر الساخر يطل عليها فى صورة انسان قناص ، وآنذاك تتبدى عاطفة الحرص على البقاء ، وتلوح غــريزة الدفاع عن النفس ، لتتغلب على غــريزة الأمومة والحزن على الطفل الفقيد ، فتعدو أمام القناص لا تلوى على شىء ، وتسلم مصيرها الى قوائمها ، والخوف

يدفعها والرعب يلهبها ، حتى أمنت النبل ، وايأست الرماة ، ثم عطفت على الكلاب ، فكانت بينها وبينهن معركة شرسة وحرب ضروس ، أسفرت عن قتيلين .

هذه البقرة يشبه الشاعر بها ناقته ، بعد أن شبهها بالسحاب مرة وبالأتان مرة أخرى ، فى قوله :

بطليح أسفار تركن بقية
منها فأحنق صلبها وسنامها
واذا تغالى لحمها وتحسرت
وتقطعت بعد الكلا خدامها
فلها هباب فى الزمام كانها
صهباء خف مع الجنوب جهامها
أو ملمع وسقت لأحقب لاحه
طرد الفحول وضربها وكدامها
يعلو بها حدب الاكام مسجج
قد رابه عصيانها ووحامها..الخ(١)

ولهذا وصفه ابن العلاء بقوله : « انما كان لبيد صاحب صفات » (٢) .

وللبيد الى جانب الفخر - وما يطوى فيه من وصف - فن آخر جوده وبرع فيه ، هو فن الرثاء ، فقد كان كما يتحدث الرواة شاعر قبيلته ، يمدح أحياءها ، ويرثى أمواتها ، وعلى هذا يكون رثاؤه - فى الجاهلية - فنا فرضته عليه حياته فى قبيلته ، فالحرب نظام الحياة اليومى ، والموت فى ساحة الوغى وتحت سنابك الخيل شىء متوقع ، والحرب تطحن الصناديد ، وتطوى الأبطال ،

---

(١) انظر الديوان ص ٣٠٣ وما بعدها .
(٢) الشعر والشعراء ص ٤٠٩ .

وكان علي لبيد أن يرثى صناديد قومه ، وأن يخلد ابطال عشيرته فى شعره .

من ذلك قوله فى رثاء بعض فرسان قومه ، كطفيل ابن مالك - فارس قرزل - وغيره (١) :

فلم ار يوما كان اكثر باكيا
وحسناء قامت عن طراف مجور

تبل خموش الوجه كل كريمة
عوان وبكر تحت قر مخدر

اولئك فابكى لا ابالك واندبى
ابا حازم فى كل يوم مذكر

فشيعهم حمد وزانت قبورهم
سرارة ريحان بقاع منور

وليس للبيد فى الجاهلية فيمن التهتهم الحروب من ابطال بنى عامر مراث مفردة الا فى الطفيل بن مالك ، فى مقطوعته التى أولها (٢) :

لما اتانى عن طفيل ورهطه
هدوءا فباتت غلة فى الحيازم

وعوف بن الاحوص ، فى مقطوعته التى أولها (٣) :

قومى اذا نام الخلى فابنى عوف الفواضل

أما من دون الطفيل وعوف فانه يتحدث عن مصارعهم - كما رأينا - جملة معا ، كأنما يسرد تاريخ البطولة بسرد اسماء الابطال .

---

(١) الديوان ص ٥١ .
(٢) الديوان ص ٥٩ .
(٣) الديوان ص ٢٣١ .

ولعل لبيداً كان يتخذ من هـذا النهج وسـيلة لتهوين الموت على نفسه .

ومن اللائق هنا ان انبه على أن لبيدا لم تكن له مراث فى النعمان بن المنذر ، وأن لاميته المضمومة التى منها :

الا كل شيء ما خلا اللـه باطل
وكل نعيـم لا محـالة زائل

لم تكن فى رثاء النعمان كما يزعم البعض ، من أمثال الدكتور : محمـد هاشـم عطية (١) ، والدكتور : احسـان عباس (٢) ، والدكتور : يحيى الجبورى (٣) ، فالقصيـدة تقطع - بما لا يدع مجالا للشك - بأنها اسـلامية ، ولبيد عنـدما تحدث عن النعمـان واجناده وكيف بادوا لم يكن يرثيه ، وانما كان يتحدث عن عظة الموت وكيف يأتى على الملوك والفحـول والأمم ، والنعمـان نموذج واضـح على تقرير هذه الحقيقة .

***

(١) الأدب العربى وتاريخه ص ٢٥٧ .
(٢) مقدمة ديوان لبيد ص ٢٤ .
(٣) لبيد بن ربيعة العامرى ص ٣٢٤ .

المنهجية فى شــعر لبيد الجاهلى

تجدر الاشارة الى ان شــعر لبيد فى هــذه المرحــلة ــ الجاهلية ــ نموذج حقيقى للشعر الجاهلى ، وأن القصيدة الجاهلية عنده قد لخصت خصائص الشعر الجاهلى ، من الناحيتين : الشكلية والموضوعية ، « فهى تامــة الصياغــة الفنية التقليدية ، وهى تمثل قمة الحرفة الفنيــة ، ثم هى بعد ذلك تسير وفق التتبع الموضوعى للقصيدة الجاهلية »(١) ولعل ذلك هو ما قصد اليه الأصمعى فى قوله : « شعر لبيد كأنه طيلسان طبرانى » (٢) يعنى أنه محكم الصنعة متكامل الجزئيات ، وليست له حــلاوة ، فما فيه من رتابة افقــده عنصر الاثارة .

ولنقف قليلا عند واحدة من أشــهر قصائده ، لنتبين مدى تلخيصها لخصائص الشعر الجاهلى ، والحرفة الفنية ، والتتبع الموضوعى ، ولتكن معلقته هذه التى تعتبر أجمل وثيقة تاريخيــة على صدق هــذا الأدب الجاهلى ، وثبات أصله ، ورسوخ قدمه ، لشــدتها وصدق انتزاعها من صميم الصحراء .

فمطلعها المطلع التقليدى لمعظم القصائد الجاهلية ، ذكر الديار ، وما اختلف عليها من الأحداث ، وما عرض لها من الخطوب ، بعد أن رحل عنهــا الأحبة ، وقد عريت ــ بعد رحيلهم ــ أمام ناظريه من الحياة ومن الحب ، فانكفأ على خيــاله ينقب فى أجنحتــه عن ذكرياته ، ويفجر عاطفتى الحنين والشــوق ؛ وقد حاربتها الطبيعــة فمحت آثارها السيول ، وانتجعتها الظباء ، حتى أضحت أطلالها أثرا كاثر

---

(١) الشعر الجاهلى . د. سيد حنفى حسنين ص ٢٥٠ .
(٢) الموشح للمرزبانى ص ٧١ .

الكتابة فى الحجارة محيت ثم جددت ، فلا تكاد تظهر الا بطول النظر وشق النفس :

عفت الديار محلها فمقامها
بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى رسمها
خلقا كما ضمن الوحى سلامها

وطال بـه وقوفه على الأطلال ، وهاجته عوامل الذكرى ، وأحزنته يد الطبيعة التى محت كل أثر لأحبته ، فاتجـه بسؤاله الى بقايا الأطلال ، رغبـة فى تهيئة الجـو الشـعرى :

فوقفت أسالها وكيف سـؤالنا
صما خوالد ما يبين كلامها ؟!
عريت وكان بها الجميع فأبكروا
منها وغودر نؤيها وثمامها

وانتقل من هنا الى ذكر حبيبته التى أحيا ارتحالها فى نفسه الشوق والحزن معا :

ساقتك ظعن الحى حين تحملوا
فتكنسوا قطنا تصر خيامها

وانتهى به شوقه وحزنه الى يأسه من صاحبته « نوار »:

بل ما تذكر من نوار وقد نأت
وتقطعت أسـبابها ورمامها
مـرية حلت بفيـد وجاورت
أهل الحجاز فأين منك مرامها ؟

وشرع يعزى نفسـه ويسرى عنها باقتحام الصحـراء.

وتجشم أهوالها على متن ناقته ، فوصفها أدق وصف وأوفاه — كما بينا سلفا — لكن الذى نلفت اليه هنا أن الشاعر بعد أن عبر الموضوعين التقليديين : ذكر الديار والوقوف على الأطلال ، وتذكر الأحبة ، وسلكهما فى صورهما التقليدية ، كما كان يفعل الشعراء وأكثر ، نتيجة اخلاصه لكل التراث الفنى فيهما ، رأيناه ينتقل الى موضوع تقليدى آخر بكل صوره وتفاصيله وهو وصف الناقة ، فيكثر من تشبيهها ، وفى كل تشبيه من هذه التشبيهات يستقصى وصف المشبه به حتى يصل الى غايته .

« وما طريق الشاعر الى التحقيق والوصف الدقيق اذا هو لم يعمد الى التشبيه والاستعارة والمجاز ، والى هذا الفن الذى عمد اليه لبيد من القصص الساذج اليسير ؟ » (١) :

بطليح أسفار تركن بقية
منها فأحنق صلبها وسنامها

والشاعر قد بذل كثير جهد من فنه وقدراته فى وصف ناقته التى استقبل بها الصحراء ، وكان ما يزال يتيه فى هذه الغرابة الدامسة ، وبينا هو كذلك اذ تخلص الى الفخر بنفسه ، متغنيا بها وبعزتها وابائها ، ورفده وكرمه ، فى حديثه الى صاحبته :

أو لم تكن تدرى نوار باننى
وصال عقد حبائل جذامها ؟!
تراك أمكنة اذا لم أرضها
أو يعتلق بعض النفوس حمامها ؟!

كذلك يتغنى بأنه رجل الحرب وفارس الوغى :

---

(١) حديث الأربعاء ٣٤/١ .

ولقـد حميت الحى تحمل شـــكتى
فرط وشـــاحى اذ غـدوت لجامها

وأن له مواقفه فى محافل الخصومة والمفاخرة :

وكـثيرة غرباؤها مجهـــولة
ترجى نوافلهـا ويخشى ذامها
أنكرت باطلها وبؤت بحقهـا
عنـدى ولم يفخر على كرامها

وأنه كريم مضياف حسن الجوار ، وهذه صفات قومـه جميعا ، هؤلاء الذين حازوا المجـد والقوة والباس والكرم والنجدة ، وهذا الفخر بقبيلتـه انما يبرز انتماء الشـــاعر لقبيلته وقومه ، وشعوره العميق بانه فرد منهم لا عز له الا اذا عزوا ، ولا كرامة له الا اذا كرموا ، فالخصال التى جمعها على قومه مصـــدر من مصـادر زهوه وموطن من مواطن تيهه :

انا اذا التقت المجامع لم يزل
منا لزاز عشـــيرة جشـــامها

فهو كمـا ترى قد لخص فى معلقته هـذه التى بلغت ثمانيـة وثمانين بيتا كل ما تناوله السـابقون عليـه من مواضيع تقليـدية بصور ليســت بالجـديدة ، وانما هى متجددة ، لانه أضفى عليها من شخصيته وأسبغ عليها من روحه ، فطبعت بهما ، وميزته عن غيره من الشـعراء ، وأبرزته لنا شـاعرا يعرف كيف يحاور الشـعر ويداوره ، ويثقفه ويهذبه ، وينقحه ويتقنه ، حتى لتكاد تختفى فيه الصنعة ، ويظهر كأنه وليد الخاطر وابن البديهة ، ويؤكد على أن الشاعر قد وصل بفنية الشـعر الجاهلى الى أرقى مستوى · وان قصائده الشـوامخ - فى هذه الفترة - فى

بنائها المحكم ، ونسجهـا القوى ، وموسيقاها المتدافعـة ، وعمق معانيها ، لتشهد لبانيها بالعناية الشديدة .

بيد أن الصعوبة اللغوية البادية فى شعره الجاهلى ، والتى مردها فى الغالب الى استغلال الشاعر معجم قبيلته الى حد بعيد ، والذى بقيت فيه جوانب غامضة لم تفسر (١) جعلت أبا عمرو بن العلاء يصف شعره بأنه «رحى بزر» (٢) يريد خشنا لا يحسن فى السمع ، لما فيـه من الاغراب الذى قد تستجفيه الآذان ولا تقع عليه الطباع . فهو والأصمعى يقرران أنه شاعر ، « ولا يريان له من الحـلاوة ما يريانه لشاعر آخر ـ كالأعشى ـ فى مدائحـه وغزله وخمرياته ، وهذه فى الغالب مواطن حلاوة الكلام ، أما المفاخر والمراثى وهما ما آثره لبيد على غيره من ضروب الشـعر ، فقلما تظفر فيهما بموطن حلاوة ، لتعلق الكلام فيهما بالحقائق الواقعة والمآثر الصادقة ، ولكنهما ـ الأصمعى وابن العلاء ـ يثبتان له جودة الشعر وقوة أسر الكلام » (٣) .

ان لبيدا الذى اجتمعت له كل مقومات الشعر لم يكن بدعا فى صعوبة التركيب اللفظى ، فالشعر المضرى جميعه متين قوى محـكم !! ولم يستغرب ذلك منــه ، لأنه كان يعيش فى بادية نجد ، وكان يعرف هذه المسميات بأسمائها ، ولم يكن فى مقدوره أن يسمى أشياء أو أماكن فى باديتـه بغير أسمائها ، ليروق لفظه ويعذب فى السمع !!

ولعل نظرة الأصمعى وأبى عمرو هـــذه ناشـئة عن التفاتهما الى هذا النوع القليل من قصائده الذى يسرد فيه سادة قومه تباعا فى سلك من النظم أشبه بعد الحاسبين ، وكان هذه القصائد صحائف تضم الأعلام العديدة وأسماء

---

(١) انظر مقدمة الديوان ص ٣٥ وما بعدها .
(٢) الموشح ص ٧١ .
(٣) الأدب العربى وتاريخه ص ٢٤٨ .

القبائل ، وليس فيها من جمال الشعر الا فضل الوزن القافية!! أو ناشئة عن التفاتهما الى ذاك اللون من الغزل الحائل الباهت فى شعره !! اذ أن النظرة الممعنة فى شعر الرجل من كل مناحيه جعلت ابن سلام يقول عنه:« وكان فى الجاهلية خير شاعر لقومه يمدحهم ويرثيهم ، ويعد أيامهم ووقائعهم وفرسانهم » (١) .

ومعلقة لبيد — بلا غرو — معدودة باجماع الرواة من الشعر العالى المكانة الرفيع الدرجة ، وشهادة النابغة — السالفة الذكر — له بانه أشعر العرب ما زال صداها يرن فى أذنى ، فهى ما فتئت ذاهبة فى طريقها الى الصواب والرشاد .

***

(١) طبقات الشعراء ص ٤٨ .

القسم الثالث

شعر لبيد الاسلامي

والخصومة حوله

١ ـ الخصومة حول دعوى هجر لبيد للشعر في الاسلام

٢ ـ شعر لبيد في الاسلام

٣ ـ أبرز فنون شعر لبيد الاسلامي



الخصومة حول دعوى هجر لبيد للشعر في الاسلام

ذكر جل الرواة والباحثين أن لبيدا قد أعرض عن نظم الشعر بعد أن أسلم ، من أمثال : الأصفهانى (١) وابن قتيبة (٢) والمرتضى (٣) والمرزبانى(٤) والبغدادى(٥) وابن حجر العسقلانى (٦) ، وغيرهم ، وغالوا فزعموا أنه لم يقل فى الاسلام الا بيتا واحدا ، وأن الشعر الذى يحمل روح الاسلام انما يدل عندهم على أن لبيدا كان — فى جاهليته — يؤمن بالبعث مثل غيره من عقلاء الجاهلية ، كقس ابن ساعدة ، وزيد بن عمرو : ومنهم من ينسب مثل هذا الشعر الى غير لبيد من أمثال : قردة بن نفاثة (٧) واستدل هؤلاء على أن لبيدا لم يقل فى الاسلام شعرا بما روى عن الشعبى : من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى المغيرة بن شعبة — واليه على الكوفة — : أن استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوه فى الاسلام ، فأرسل الى الأغلب العجلى — الراجز — أن انشدنى ، فقال :

أرجزا تريد أم قصيدا ؟
لقد طلبت هينا موجودا !!

ثم أرسل الى لبيد أن انشدنى ، فقال : ان شئت ما عفى عنه ؟ — يعنى الجاهلية — قال : لا ! ما قلت فى الاسلام :

---

(١) الأغانى ١٤/٩٠ وما بعدها ط الساسى .
(٢) الشعر والشعراء ١/٢٧٦ ط دار المعارف .
(٣) امالى المرتضى ١/١٨٩ ط الحلبى .
(٤) معجم الشعراء .
(٥) خزانة الأدب ١/٣٣٤ .
(٦) الاصابة فى تمييز الصحابة ٥/٦٧٥ ومابعدها ط دار نهضة مصر .
(٧) انظر الاصابة ٥/٦٧٦ .

فانطلق الى بيته ، فكتب ســورة البقرة فى صحيفة ثم اتى بها ، فقال : أبدلنى الله هذه فى الاســلام مكان الشــعر . فكتب بذلك المغيرة الى عمــر ، فنقص من عطــاء الأغلب خمسمائة ، وجعلهــا فى عطاء لبيــد ، فكان عطاؤه الفين وخمسمائة ؛ فكتب الأغلب : يا أمير المؤمنين تنقص عطائى أن اطعتك ؟! فرد عليه خمسمائة ، وأقر لبيدا على عطائه .

وأراد معاوية أن ينقصــه الخمسمائة بقوله : هــذان الفودان — أو الخرجان — يعنى الألفين — فما بال العلاوة ؟ فقال لبيد : أموت ويبقى لك الفودان والعلاوة ، وانما انا هامة اليوم او غد ! فرق له وترك عطاءه على حاله .

واستدلوا أيضا بقول لبيد لابنته يوم أن هبت الصبــا وكان مملقا مقترا فبعث اليــه الوليــد بن عقبــة — والى الكوفة لعثمان بن عفان رضى الله عنه — بمائة ناقة وأبيات شــعر : أجيبيه ، فلقد عشت برهة وما أعيا بجواب شاعر .

والحقيقة التى أريد أن أقررها : أن لبيــدا لم يتوقف عن الشعر بعد اســـلامه ، وليس هــذا منى من قبيل حب الخــلاف ، فلست ممن يشـــايعون مبدأ « خالف تعرف » ولكننى أسعى وراء الحقيقــة ، ولو كلفنى ذلك عنتا ولأيا شديدين .

وهذا ديوانه بعــد أن أعيد طبعــه بتحقيق الدكتور : احســان عباس يؤكد لنا على أن لبيدا قد قال الشــعر فى الاسلام ، وأن له شعرا اسلاميا كثيرا ، وانه لم يكن شاعرا جاهليا فحسب — كما يزعم هؤلاء الرواة — وانما هو أيضا شاعر اسلامى ، أو بمعنى آخر : شاعر مخضرم ، لم ينضب معين شعره ، ولم تغض ينابيع نظمه ، حتى بعد اسلامه ؛ ولست ألقى هــذا الرأى على عواهنه ، فهو رأى ناتج عن أدلة .

أولها : أن جل الرواة مجمعون على أن لبيدا قد أسلم قبل عام الوفود ـ العام التاسع للهجرة ـ سواء أكان ذلك يوم أن وفد على رسول اللـه صلى الله عليه وسلم مع وفد قيس لما اشتد بهم الجدب ، وفشت فيهم المجاعة بدعوة النبى صلى الله عليه والسلام بعد حادثة بئر معونة ، وأنشد لبيد النبى عليه الصلاة والسلام :

أتينـاك يا خيـر البريـة كلهـا
لترحمنـا مما لقينا من الأزل
أتينـاك والعـذراء تدمى لبانهـا
وقد ذهلت أم الصبى عـن الطفـل
فان تدع بالسقيا وبالعفو ترسل السـ
ـماء والأمر يبقى على الأصـل
وألقى تكنيـه الشـجاع استكانة
من الجوع صمتا لا يمر ولا يحلى(١)

أو يوم أن أرسله عمه أبو براء الى النبى صلى اللـه عليه وسلم ومعه هدية ، يسأله أن يطب له من دبيلة «دمل» فى جوفه ، فرفض الرسول الهدية قائلا : لو قبلت من مشرك اقبلت منه ، وأعطى لبيدا مدرة بعد أن تفل عليها ، وقال له : دفها له بماء ثم اسقه اياها ، وقد اقام لبيد فى المدينة حتى حفظ بعض القرآن ، وكتب سورة الرحمن ، ثم رجع الى قومه بذكر البعث والجنة والنار ، فانكره قومه ، وهجاه سراقة بن عوف بن الأحوص :

لعمـر لبيـد انه لابن أمـه
ولـكن أبوه مسـه قدم العهـد
دفعناك فى أرض الحجاز كأنما
دفعناك فحـلا فوقه قرع اللبد

(١) الأزل : ضعف العيش - ألقى تكنيـه الشجاع : ضعف عن القتال - الاصابة ٦٧٨/٥ .

فعالجت حباه وداء ضلوعــــه
وترنيق عيش مسه طرق الجهد
وجئت بدين الصابئين تشـــوبه
بالواح نجد بعد عهدك من عهد
وان لنـا دارا زعمت ومرجعا
وثم اياب القارظين وذى البرد

والمصادر تؤكد أن أخاه أربد قد لقيه بعـد عودته من المدينة ، فسأله عن الرســول ، فذكر له صدقه وبره وحسـن حديثه ، وأنه قرأ له سورة الرحمن ، فلما فرغ منها ، قال له أربد : لوددت أن ألقى الرحمــن بتلك البرقة ، فان لم أضربه بسيفي فعلى وعلى (١) .

كما يجمع هؤلاء الرواة على أن وفادة عامر بن الطفيل وأربد بن قيس ـ أخي لبيد لأمه ـ وحيان بن سـلمى على الرســول كانت فى عام الوفود ، وأن عامرا واربد قد هما بالغدر برسول الله ، فدعا الرسول عليهما ، فتوفى عامر بالغدة منقلبه من المدينة فى بيت سلولية ، واصابت اربـد صاعقة فأحرقته (٢) وقد رثى لبيد أخاه أربد بقصائد تعد من عيون الشعر ، لم ينكر مراثيه هذه واحد من الرواة . واسلام لبيد سابق على رثائه أربد .

وعلى هذا فان لبيدا المسلم يكون قد رثى أخاه ، وهو على الاســـلام ، ولم يكن بحال على جاهليتــه التى حطم قيودها منذ وفادته على الرسول صلى الله عليه وسلم وان كان لم يعلن اسلامه الا فى العام التاسع للهجرة ، يوم أن وفد ضمن وفد بنى كلاب ونزلوا دار رمـلة بنت الحـارث فسلموا على الرسول سـلام الاســـلام ، ورجعوا الى بلاد

(١) انظر الأغانى ١٥/١٣١ .

(٢) انظر الشـعر والشـعراء ١/٢٧٨ . يقال نزل فى اربد قول الله تعالى : « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » سورة الرعد : ١٣

قومهم (١) اذ كان لبيد فى الفترة السابقة على قدوم وفد قومه من المؤلفة قلوبهم ، ولعل الرسول شاء أن يعد لبيدا من المؤلفة قلوبهم لأنه أسلم وقومه ما يزالون على غير الاسلام (٢) ، ومن ثم نؤكد على أن مراثى لبيد فى أخية أربد قد قيلت بعد اسلامه ، وهذا ينفى ما شاع لدى القوم من أن لبيدا لم يقل فى الاسلام الا بيتا واحدا !!

علاوة على أن شعر لبيد فى أخيه يحمل فى كثير من جوانبه الروح الاسلامية ، بدليل أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه ـ كما ذكر المدائنى ـ لما أنشد قول لبيد فى أخيه أربد :

لعمرى لئن كان المخبر صادقا
لقد رزئت فى حادث الدهر جعفر
أخ لى أما كل شىء سألته
فيعطى ، وأما كل ذنب فيغفر

فقال أبو بكر رضوان الله عليه : ذلك رسول الله لا أربد بن قيس !! (٣) ·

هذ الى جانب شعر لبيد الذى تؤكد الأحداث التاريخية ومناسباته أنه قاله بعد الاسلام ، كشعره فى رثاء عمه أبى براء ، وفى خروج قومه مع الجند الاسلامى الفاتح فى العراق والشام ·

ثانيها : أن جل هؤلاء الرواة والباحثين يجمعون على

---

(١) انظر تاريخ الطبرى ٣٢/١٢ ·
(٢) انظر مقدمة الديوان ص ٢٧ ·
(٣) الأغانى ١٣٣/١٥ ·

أن لبيدا أسلم فى التسعين من عمره ، وفى ذات الوقت يرون (١) أن لبيدا لما بلغ السابعة والسبعين قال :

قامت تشكى الى النفس مجهشة
وقد حملتك سبعا بعد سبعين
فان تزادى ثلاثا تبلغى أملا
وفى الثلاث وفاء للثمانين

فلما بلغ تسعين حجة قال :

كانى وقد جاوزت تسعين حجة
خلعت بها عن منكبى ردائيا

فلما بلغ عشرا ومائة سنة قال :

أليس فى مائة قد عاشها رجل
وفى تكامل عشر بعدها عمر ؟!

فلما جاوزها قال :

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس كيف لبيد ؟
غلب الرجال وكان غير مغلب
دهر طويل دائم ممدود
يوما أرى ياتى على وليلة
وكلاهما بعد المضاء يعود
واراه ياتى مثل يوم لقيته
لم ينتقص وضعفت وهو يزيد

---

(١) كتاب المعمرين من العرب ص ٥٣ ط صبيح ، المعمرون والوصايا للسجستانى ص ٧٨ ط الحلبى ، الأغانى ٩٦/١٤ ، الاصابة ٦٧٨/٥ .

ويذكرون أن الشعبى ذكر هـذه الأبيـات لعبـد الملك ابن مروان فى مرضه الذى مات فيه .

ومن ثم نستطيع القول بأن الشعر الذى ذكروه للبيد بعد التسعين شعر اسلامى من غير شك ، لأنه قاله وهو على الاسلام .

أضف الى هذا ما تحدث الينـــا به هؤلاء الرواة : من أن لبيدا قال شعر قبل أن يموت ، يعلم فيه ابنتيه (١) كيف تؤديان اليه حقه من الحزن عليه بعد موته ، وهو :

تمنى ابنتـاى أن يعيش أبوهمـــا
وهل أنا الا من ربيعـــة أو مضر ؟
فان حان يوما أن يمـوت أبوكمـا
فلا تخمشا وجها ولا تحلقا شـعر
وقولا : هو المرء الذى لا خليفه
أضاع ولا خان الصـديق ولا غـدر
الى الحول ثم اسـم السلام عليكما
ومن يبك حولا كامـلا فقد اعتـذر

وشعر آخر يعلم فيه ابنه أو ابن أخيـه ما يجب عليـه فعله عند ما يقبض أبوه ، وهو :

ابنى هـــل أبصـــرت أعــ
ـــمامى بنى أم البنينـــــا ؟
وأبـــى الـــذى كان الأرا
مل فى الشـــتاء له قطينا ؟
وأبـا شـــــريك والمنـــا
زل فى المضـــيق اذا لقينـــا

(١) هاتان البنتان لعلهما يسرة واسماء اللتان يذكرهما فى شعره .

ما ان رأيت ولا سـمعت
بمثـله فى العـالمينا
فبقيت بعـدهم وكنت
بطـول صحـبتهم ضنينـا
دعنى وما ملـكت يميـ
ـنى أن شـددت بها الشـؤونا
وافعـل بمالك ما بـدا
لك مسـتعينا أو معينـا
واذا دفنت أبـاك فاجـ
ـعل فوقه خشـبا وطينـا
وسـقائفا صـما رواسـ
ـيها يسـددن الغضـونا
ليقين حـر الوجـه سـفـ
ـساف التـراب ولـن يقينا

وهذا الشعر الذى قاله وهو يجود بنفسه يدعم رأينا ، ويؤكد على أن الرجل قال الشعر فى الاسـلام ، وأنه ظل يقول الشعر حتى ساعة الاحتضار ، الا أن يسـوغ الوهم لأصحاب الزعم السائر أن لبيدا لم يكن مسلما عندما حضرته منيته ، ولم يكن مسلما بعـد التسعين !! أو أن يتنكروا ـ مشايعة لما يزعمون ـ لهذا الشعر ، مثلما تنكروا لغيره من شعر الرجل الاسلامى !!

ولكن كيف يتأتى لهم ذلك ، وقد ذكروا هذا الشـعر وأثبتوه ؟!!

ومن هنا كان حجة عليهم ودليلا لنا ، لأن القضية اذا كانت قد ثبتت فى جانب منهـا فان ذلك ينسحب عليهـا برمتها ، وينتفى آنئذ ما لم يقم عليه دليل ، وما تناقض حوله زاعموه !!

ثالثها : أن الذين يزعمون أن لبيدا لم يقل فى الاسلام

الا بيتا واحدا لم يتفقوا على هذا البيت ، وانمـــا اختلفوا فيه ، ففى رواية عن أبى عبيدة : أن البيت هو :

الحمـــد لله اذ لـــم يأتنى أجلـــى
حتى لبست من الاسلام سر بالا (١)

غير أن بعضهم انكر نسبة البيت للبيد ، مدعين نســـبته لقردة بن نفاثة السلولى ـ عصرى لبيد ـ من ابيات أنشدها للنبى صلى الله عليه وسلم حين وفد عليه ، ومنها :

بان الشـــباب فلم احفـــل به بالا
وأقبـــل الشيب والاســـلام اقبـــالا
وقـــد أروى نديمى من مشعشـــعة
وقـــــد اقلـــب أوراكـــا واكفـــالا
والحمـــــد لله اذ لم يـــأتنى أجلـــى
حتى لبست من الاســـلام ســـر بالا

وعلى هذا فان البيت الذى قاله لبيد فى الاسلام هو :

ما عاتب الحـــر الـــكريم كنفســـه
والمرء يصلحه الجليس الصـــالح (٢)

وابن الأثير يقول : « بل البيت الذى قاله فى الاســلام هو :

وكل امـــــرىء يوما سيعلم ســـعيه
اذا كشفت عند الاله المحاصـل (٣)

واختلافهم حول البيت بهذه الصورة يفتح طريقـــــا

(١) يروى : كسانى بدل لبست .
(٢) يروى اللبيب بدل الكريم . انظر : الشعر والشعراء ٢٧٥/١ ، والاصابة ٢٧٦/٥ ، والاستيعاب ١٣٣٥ ، ومعجم الشعراء ص ٢٢٣ .
(٣) أسد الغابة ٢٦١/٤ .

واسعا للشك والريب فيمـــا روجوا وزعمـــوا ، وينفى عنه اليقين .

رابعها : اغراق هؤلاء فى حيرتهم ، واضطرابهم حول أبيات لبيد التى تحمل روح الاسلام ، وتشير فى وضـــوح وجلاء الى الاقتداء بالقرآن الكريم والاقتباس منه ، كقوله:

الا كـل شـــىء مـا خـلا الله باطــل
وكـــل نعيـــم لا محـــالة زائـــل
وكـــل انـــاس ســـوف تدخـــل بينهم
دويهيـــــة تصـــفر منهـــا الأنامـــل
وكل امـــرىء يوما سـيعلم ســـعيه
اذا كشـفت عنـد الاله المحاصـل (١)

فأما أبو عمر فقد رمى القصيدة كلها بالانتحال أولا ، وقال : أنها ليست للبيد ، وانما هى لقردة بن نفاثة . ولو تروى أبو عمر لأدرك صـــحة نســبتها للبيد ، وأنها ليست منحولة عليه ، بدليل ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريـــرة مرفوعا « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أصدق كلمـــة قالها الشاعر كلمة لبيد » (٢) وذكر البيت — الأول — أو شطرا منه ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام قالها على المنبر ، ثم اضطرب أبو عمر فقال ثانية : « فى هذه القصيدة ما يدل على أنه — أى لبيدا — قال فى الاسلام ، وذلك قوله :

وكل امـــرىء يوما سـيعلم ســـعيه
إذا كشـــفت عند الاله المحاصل (٣)

---

(١) فالبيت الأول مقتبس من قول الله عز وجل : « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » . والثانى مستمد من قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت » ، والثالث : مقتبس من قول الله عز وجل : « افلا يعلم اذا بعثر ما فى القبور ، وحصل ما فى الصدور » .

(٢) صحيح مسلم ١٧٦٨/٤ .

(٣) الاصابة ٦٧٨/٥ .

واضطرب كذلك ابن حجر العسقلانى فقال : ان لبيــدا انما قال هذا قبــل أن يســلم ، اذ كان يؤمن بالبعث فى جاهليته ، ويعجب من خفــاء هذا الأمر على الرجل قائلا : كيف يخفى على أبى عمر انه قالها قبل ان يسلم مع القصة المشهورة لعثمان بن مظعون مع لبيد لما انشد قريشــا هذه القصيدة ، فلما قال : الا كل شىء ماخلا الله باطل ، قال له عثمان : صدقت ، فلمــا قال : وكل نعيم لا محــالة زائل ، قال له : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول .

ثم عاد ابن حجر بعد فقال : ويحتمل ان يكون زاد هذا البيت بخصوصه بعد أن أسلم ، ويكون مراد من قال : انه لم ينظم شعرا منذ أسلم يريد شعرا كاملا لا تكميلا لقصــيدة سبق نظمه لها (١) .

والذى أرجحه أن هذه القصة النقدية لم تكن مع عثمان ابن مظعون ، وانما كانت مع أبى بكر الصـديق رضى الله عنه ، يقول صــاحب الموشح : « حدثنى أحمــد بن ابراهيم الجمال وأحمد بن محمد الجوهرى قالا : حدثنا الحسين بن عليل العنزى قال : حدثنا يوسف بن حماد قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، قال : حدثنا سعيد بن حسان المخزومى قال : سمعت عبد الملك بن عمير يحدث أن لبيدا الشاعر قام على أبى بكر رحمه الله فقال : الا كل شىء ماخلا الله باطل ، فقال : صدقت ، قال : وكل نعيم لا محالة زائل . فقــال : كذبت ، عند الله نعيم لا يزول (٢) ، وقد جاء هذا النقد فى ظلال نمو النقد الدينى ، وبدهى ان الشاعر لم يرن الى هذه الفكرة التى لحظها الصديق ، وانما أراد ما يراه الناس من أحوال الدنيا فى تغيرها وقلة ثباتها ، فنعيمها وبؤســها متحول متقلب ، وبذا يزول الشك الطارىء من كلام ابن

---

(١) الاستيعاب ١٣٣٥ ، الاصابة ٥/٦٧٦ .

(٢) الموشــح ص ١٠١ وانظر كذلك الشعر والشــعراء ص ٢٣٧ ، والصناعتين ص ٤٣٤ ، والاصابة ٣/٣٠٧ ، وخزانة الأدب ٢/٢٢١ .

حجر ، ثم إن البلبلة الفكرية واضحة فى قول ابن حجـــر الذى يتمحل ليشايع زعما قائما فى نفســه فيفترض معتمدا فى افتراضــه على الحـدس والتخمين ، اللذين لا ينصران قضية ، وهل هناك ما يمنع أن يكون لبيد قد قال هـــذا الشعر فى الاسلام ؟!

انه الاضطراب والحيرة اللذان وقع تحت طائلتها أيضا ابن قتيبة ، الذى ذكر هذه الأبيات فيما يستجاد من شعر لبيد ، ووقف عند قوله :

وكل امـرىء يوما ســيعلم ســعيه
اذا كشــفت عند الالــه المحاصــل

قائلا : ان هذا البيت يدل على انه قيل فى الاسلام ، فهو شبيه بقول الله تبـــارك وتعالى : « وحصـــل ما فى الصدور » ثم غلب عليه مسايرة الزعم الشـــائع فاضطرب ــ كما اضطرب غيره ــ وقال : أو كان لبيد قبل اسلامه يؤمن بالبعث والحساب ولعل البيت منحول !! (١) وتقرير ابن قتيبة الأول يدل على الصدق النفسى ، ورأيه الذى يعتقده فيما بينه وبين نفسه ، وعندما ودع هذا الاعتقـــاد الى الزعم الشائع اضعف افتراضه بهذا الاســلوب التمريضى ، الذى استعمل فيه « أو » و « لعل » .

ولما كان من الثابت نسبة هذه الأبيات للبيد ، وعــدم نحلها له ــ بما ســـقنا من أدلة ــ فان حقيقة مهمة تنجلى أمام اعيننـــا مفادها : أن للبيد شعره الاســـلامى ، وأن اضطراب أصحـاب الزعم الذى لا نقبله وحيرتهم وبلبلتهم لتؤكد هذه الحقيقة وتدمغ زعمهم . وهؤلاء عندما قالوا: ان لبيدا أكمل فى الاسلام قصائد سبق نظمه لها ، يكونون

(١) الشعر والشعراء ١/٢٧٩ ــ ٢٨٠ .

قد اقروا بهـــذه الحقيقة واذعنوا لهـــذا الأمر من حيث لا يحتسبون .

خامسها : اننى لست مطمئنا كل الاطمئنان الى قصة لبيد مع المغيرة بن شعبة ، لأنها تصور عمر بن الخطاب رضى الله عنه متجهما فى وجه الشعراء ، جاحدا الشعر ، واقفا من الشعر والشعراء موقفا عدائيا ، مع ما هو معروف عنه من مقامات فى نقد الشعر والمفاضلة بين الشـــعراء ، وكونه كان من أشد الناس بصرا به ومعرفة بأوابده وحباله، « وكان لا يكاد يعرض له أمر الا انشد فيه بيت شعر » (١) وكان — من هـذا المنطلق — يحث الناس عليـــه ويأمرهم بروايته ، وقد أثر عنه قوله : « علموا أولادكم الســـباحة ، ومروهم فليثبتوا على ظهور الخيل ، ورووهم الشعر تعذب ألسنتهم » وكتب إلى أبى موسى الأشعرى : « مـــر من قبلك بتعلم الشعر ، فانه يدل على معالى الاخلاق ، وصـــواب الرأى ، ومعرفة الانساب » (٢) فالتباين واضح !!

ثم انى لا استسيغ ان يحط عمر العادل الملهم منعطاء الأغلب — الذى يقتات منه هو وأسرته — لمجرد قوله الشعر ، ولا يشفع رده عليه بعد ان راجعه الأغلب بقولـــه : تنقص عطائى أن أطعتك ؟! مرة أخرى .

لعل عمر رضى الله عنه زاد فى عطاء لبيد الخمســمائة ليعينه على كرمه الذى قطعه على نفسه ، تأصيلا من عمر لقيمة الكرم فى نفوس الناس ، فالصق الرواة الزيادة بهذه القصة ! ومن الجائز ان تكون هذه القصة صحيحة ، ويكون لبيد بذكائه ولوذعيته قد عرف أن المغيرة يمتحنه ، وأدرك سر هذا الامتحان ، فعرف كيف يجيب ، وجوابـــه لا يعنى أنه توقف عن نظم الشعر ، ولكنه يعنى أنه مهما وصل من

---

(١) البيان والتبيين ٢٤١/١ .
(٢) انظر العقد الفريد ٢٨١/٥ .

مستوى فالقرآن أجل وأرفع ، ولا تعارض بين زهد لبيد وانصرافه الى القرآن ، وبين قول الشعر وتسجيل عواطفه الدينية وتجاربه فى هذه الحقبة من عمره ! وان اعراضه عن قول الشعر فى الاسلام يعنى أنه لم يتخذه صناعة ، ولم يكثر من انشائه وانشاده بسبب الاسلام وشدة اهتمامه بالقرآن ، وبحكم السن ، اذ كان قد تخطى — فى الوقت ذاته — المائة عام بأعوام ، واذن تكون معاقبة عمر للاغلب — ان صحت القصة — قد جاءت من وجه آخر كان عمر عليه أشد حرصا ، وبه أكثر وجدا ، ذاك هو اغراء الناس بالقرآن وحملهم على تفهم اسراره واستظهار آياته ، فكان صنيع عمر مظاهرة واضحة لما تقدم به لبيد ، لكيلا يكون القائم بالأمر والخليفة المتبع أقل حفاظا على دعامة الدين ممن استرعوه أمرهم ، واتخذوه اماما لهم . وان مما يدل على أن لبيدا لم يتوقف عن الشعر ، ولم يعى عن قرضه فى عهد عمر أرجوزته التى سجل فيها حادث عرض الخيل على « سلمان بن ربيعة الباهلى » — قاضى الكوفة لعمر — ليحكم بعتقها أو هجنتها ، وكان سلمان قد دعا بطست من ماء فوضعت بالارض ، ثم قدم الخيل فرسا فرسا ، فما ثنى منها سنبكه فشرب جعله هجينا — لقصر عنقه — وما شرب ولم يثن سنبكه جعله عتيقا — لطول عنقه — فقال لبيد فى ذلك أرجوزته التى منها :

من يبسط الله عليه اصبعا
بالخير والشر بأى أولعا
يملأ له منه ذنوبا مترعا
وقد أباد ارما وتبعا
أنت جعلت الباهلى يفنعا
فينا فأمسى ماجدا ممنعا
وحق من رفعته أن يرفعا
وكان شيخا باهليا اضلعا (١)

---

(١) الاستيعاب ٣/٥٨٣ .

وهى القصيدة الثامنة والخمسون فى الديوان ، وفيهـا تتالق الروح الدينية الاسـلامية ، غير أن الدكتور احسـان عباس ـ محقق الديوان ـ يفترض فى مقدمـة الديوان أن شاعرية لبيد توقفت فى أواخر عهد عمر ، وأنه حين سأله شعرا كان قد توقف عن قوله الى الابد (١) وهـذا القول يتناقض وقصيدتى الرجل اللتين قالهما وهو يستشعر دنو الموت ، ويحس بزحف رسل الحمام عليه ، واللتين أثبتهما محقق الديوان تحت رقم (٢٨) ورقم (٤٩) (٢) .

وأما موقف لبيد من والى عثمان بن عفان رضى اللـه عنه ، الوليد بن عقبة ، وقوله لابنته الذى يأسف فيه على أنه أصبح حينئذ يعيا عن قول الشعر : « لعمرى لقد عشت برهة وما أعيا بجواب شاعر » فليس معنى ذلك أن لبيدا كان قد أجبل ، وانما معناه ان ملكة الشعر لم تعد تواكبه بالقوافى، وتسعفه بالمعانى كما كانت ، بسبب طعنه فى السن وتقـدم الزمن به ، فلم يعد حبل القوافى فى يديه ، يرخيه أينمـا شاء وكيف شاء اذ ند عنه وشرد منه ، فلم يكد يحل بساحته، ويتالق فى سماء خياله الشعرى الا فى القليل .

وليس هذا ببدع أو غريب ، وانمـا الغريب ان تتدفق ينابيعه الشـعرية بعدما تقدمت به السنون وصـدع عنه الشـباب مثلما كانت أيام فتوته واكتمال شـبابه ، ان الصحة العامة والمواهب الجسدية يعتريها الاعتلال بسـبب الشيب ، فلم لا يعترى هذا الاعتلال المواهب الفنية بسـبب الشيب ؟!!

ان الشاعر السوى كما أثبت الواقع والدراسات النفسية يقدر على قرض الشعر فى وقت دون وقت ، وقد أدرك ابن

---

(١) مقدمة الديوان ص ٢٩ .

(٢) الديوان ص ٢١٣ ، ٣٢٢ .

فيه هذه الظاهرة ، وقرنها بحالات جسدية ونفسية فى قوله : « ولا تعرف لذلك علة الا من عارض يعرض على الغريزة من سوء غذاء أو خاطر غم » (١) وهل يعرض على الغريزة عارض أقوى واشد من الشيب والاكتهال ؟!!

وغير خاف أثر التكوين الخلقى فى تكوين الشعر (٢) وقد أدرك بعض الشعراء أثر الكد الذهنى والفتور النفسى ، كالفرزدق الذى يقول : « أنا أشعر تميم عند تميم ، وربما أتت على ساعة ونزع ضرس أهون على من قول بيت » (٣) فاذا كان الفرزدق الذى لم يكتهل بعد ، والذى لم يعيض ماء الحياة ورواءها من وجهه المشيب تتقرر لديه هذه الحقيقة ، فكيف بلبيد الذى أخنى عليه الدهر ، وثقلت على صدره الحياة ؟!!

ان هذا يعنى أنه ما كان قد أجبل ، وانما يعنى أن غريزته ما كانت تسعفه فى كل وقت ألح عليها فيه ، فاذا كانت تسعفه فى وقت ، فانها كانت تابى عليه فى وقت آخر .

ولعل هذا الوقت الذى طلب فيه من ابنته أن تجيب الوليد بن عقبة كان من أوقات امتناع الغريزة عليه !!

ولعل مرد عى لبيد عن اجابة الوليد « الى الانفة من شكر رجل لم يكن طيب الذكر ، وقد عرف عنه ما عرف من تهمة شرب الخمر ، فمدح لبيد اياه على يده عنده قد تعلى شأن الوليد وتحرج لبيدا ، ولبيد لم يكن مداحا فى الجاهلية حتى يتهافت على المدح فى الاسلام ، وفى حال من

(١) الشعر والشعراء ٩/١ .

(٢) انظر كتاب من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده ص ٣٥ .

(٣) الشعر والشعراء ٨١/١ .

تزهده !! » (١) ولم أر أحد نسب هذه المدحة للبيد الا ابن السكيت (٢) .

ان لبيدا فى الاســـلام ـ كما يتراءى لى ـ لم يــكن بحال من شـــعراء المحـــافل ، ولا مادا أطنابه فى المديح والاطراء ، ولاضاربا بباع فى الاقذاع والهجـاء ، ومن ثم روج عنه ما روج واختلق عليه ما لم يكن .

وبعد : فقد تنفس الصـــبح عن حقيقة جلية هى : أن لبيدا العامرى شـاعر مخضرم ، وأنه ظل يقول الشـعر حتى ساعة الاحتضار ، وأنه ليس صحيحا انه لم يقل فى الاسلام الا بيتا واحدا ، وان أصحاب هذا الزعم قـــد اسرفوا على انفسهم فيه ، وان لبيدا لم يتخذ الشعر فى الاسلام صناعة ، وانه قد قل شـــعره بخمود قريحته بســـبب هـــذا العمر الطويل .

* * *

(١) الشعر فى الاسلام د. الغول الطبعة الثانية ص ٦٧ .
(٢) اصلاح المنطق تحقيق شاكر وهارون ص ١٢٤ .

شعر لبيد فى الاسلام

ثبت لدينا بالأدلة المادية والاستنباطية والأحـــداث التاريخية ومناسباتها أن للبيد شعرا اسلاميا ، يمثل المرحلة الثانية من شعره ، وهذه الحقيقة نهضت على أنقاض الزعم القائل : بأن لبيدا لم يقل فى الاسلام الا بيتا واحدا .

وشعر لبيد فى هـــذه الفترة الاســـلامية لون جديد مساير للاسلام وثورته الحضـــارية ،وبعيد كل البعـــد عن النهج التقليدى الذى نهجه فى الجاهلية ، وان احتفظ فى ظلال الاسلام بالمستوى الشعرى ، فلم يضعف شـعره آنئذ كما ضعف شـــعر غيره ، ولم يترد فى مواجهة الينـــابيع الثقافية الجديدة كمـــا تردى غيره ، وتحولت القصـــيدة الاسلامية عنده ــ فى شكلها ومضمونها وأســـلوبها ــ الى صـــورة جديدة ــ سوف تكشف عنها وتجليها ــ ان شـــاء الله ــ الصحائف التالية من هذه الدراسة ــ فى الوقت الذى لم يهبط فيه المستوى الفنى لهذا الشعر ، وهذا بلاريب راجع الى تغلغل الاســـلام فى ضميره ،واســـتقرار مبادئه فى أعماقه ، والذين يقرأون شعره فى هذه الفترة يشـــعرون بصدق مشاعره وعمق تدينه ، « وان صدق مشاعره الدينية هو الذى ساعده على أن يحتفظ بمستوى فنه الجاهلى فى شعره الاسلامى » (١) .

ومن اللائق أن أشير فى عجالة الى بعض جوانب هذا التحول :

فقد بدا ذلك واضحا فى أن القصيدة عنده قد استحالت ــ فى الغـــالب ــ الى المقطوعة ذات الموضـــوع الواحد ، واستحالت المقدمة الطللية الى تسبيح وحمد ، واســـتحال

---

(١) الشعر الجاهلى د. سيد حنفى ص ٢٥٨ .

الفخر الذى كان يملأ شـعره ، ويملك نفسـه ، الى انابة الى الله ، ووجل من يوم الحساب ، واستحالت الفاظه اللغوية الحوشية الى لفظ رقيق مهذب ، جعل ابن سلام يقول فيه : « كان عذب المنطق ، رقيق حواشى الكلام ، وكان مسـلما رجل صدق » (١) .

وهذه العلاقة بين الدين والشعر هى التى جعلت أبا عمرو بن العلاء يقول فيه : « ما أحد أحب الى شـعرا من لبيـد ، لذكـره الله عز وجل ، ولاسـلامه ولذكره الدين والخير » (٢) .

لقد استقى الشاعر من ينابيع القرآن الكريم والحديث الشريف ، ووضح هذا الأثر فى شعره ، فانسابت فيه أصداء وظلال المعانى الاسلامية ، وجاء والروح الاسلامية ماثلة فى تضاعيف أبياته ، كما فى قوله :

للـه نافلـة الأجـل الأفضـل
ولـه العـلا وأثيث كـل مؤثـل
لا يسـتطيع النـاس محو كتـابه
أنـى وليس قضـاؤه بمبـدل

الى أن يقول :

بل كل سـعيك باطـل الا التقى
فاذا انقضى شىء كان لم تفعل (٣)

ففى تضاعيف هذا الشـعر تبرز الروح الاسـلامية بوضوح ، وهكذا شـعر لبيد الاسـلامى يفيض بالخوف من اللـه الذى أحصى كل شىء فى كتـاب ، والوجل من يوم القيامة ، والحديث عن التقوى والأبرار ، والزهد فى الحياة ، واليقين من حتمية الموت ، والموعظة والدعوة الى

---

(١) طبقات الشعراء ص ٤٨ .
(٢) الموشح ص ٧١ .
(٣) الديوان ٢٧١ وما بعدها .

صالح الأعمال ، والتذكير بتاريخ السابقين ، إلى جانب فن « الرثاء » الذى برع فيه كل البراعة ، واحتفال شعر لبيد الاسلامى بهذه الأقباس الاسلامية على هذه الصورة يوضح الفرق بينه وبين شعر غيره من الشعراء المخضرمين المعاصرين له ، أمثال : الحطيئة ، والنابغة الجعدى ، وكعب ابن زهير ، والعباس بن مرداس وغيرهم ، فان شعرهم لم يكن متاثرا بالاسلام ذلك التأثر الواضح فى شعر لبيد ، فاذا استثنينا القليل من شعر هؤلاء الذى يحمل فى تضاعيفه اقباسا من تعاليم الاسلام ، فان الكثرة الكاثرة من شعرهم الذى نظموه فى الاسلام لم يكن بينه وبين الشعر الجاهلى فرق واضح ، ذلك أن أثر الاسلام فى شعر شعراء هذه الفترة لم يظهر واضحا الا عند شعراء مدرسة المدينة : حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، هؤلاء الذين حملوا راية النضال ضد شعراء مدرسة مكة من أمثال : عبد الله بن الزبعرى ، وضرار بن الخطاب ، وأبى سفيان ابن الحارث وغيرهم (١) .

وليس شعر لبيد فى الاسلام بقليل ، فقد تبين لنا من خلال دراستنا ونظرنا المعن فى ديوانه أن له أكثر من عشرين قصيدة ومقطوعة وأرجوزة ، تؤكد جميعها — فى شكلها وبنائها ومواضيعها ومناسباتها — أن لبيدا نظمها فى ظلال الاسلام ، وهى :

مراثيه فى عمه أبى براء — عامر بن مالك — وهى القصيدة الأولى فى الديوان ، والتى وصف فيها أبا براء بذى الفضل فى قوله :

وبعد أبى عمرو وذى الفضل عامر
وبعد المرجى عروة الخير للكرب

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى : شعر المخضرمين واثر الاسلام فيه د. يحيى الجبورى ص ٥٧ وما بعدها .

والقصيدة الثامنة التى يرثى فيها الى جانب عمه أبطال قومه وابن عمه عامر بن الطفيل .

وأرجوزته الميمية التى مطلعها :

« يا عامر بن مالك يا عما
أهلكت عما واعشت عما »

وأرجوزته الحائية التى مطلعها :

« قوما تجوبان مع الانواح
فى مأتم مهجر الرواح »(١)

مراثيه فى أربد أخيه لامه : وهى عشر قصائد وأرجوزة واحدة ، تمثل القسم الثانى فى الديوان . قصيدته فى الحنين الى قومه حين ذهبوا مع جيش المسلمين الفاتح فى العراق والشام ، وقد قعدت بلبيد سنه فلم يخرج مع المجاهدين فى سبيل الله ، وأولها :

انما يحفظ التقى الابرار
والى الله يستقر القرار

ومنها :

وأرى ال عامر ودعونى
غير قوم أفراسهم أمهار

ولا ميتاه الوعظيتان وهما : القصيدة السادسة والثلاثون ، والقصيدة التاسعة والثلاثون فى الديوان ، ومطلع الاولى :

---

(١) الديوان ص ١ ، ٤٦ ، ٣٣٢ ، ٣٤٥ .

الا تسألان المرء ماذا يحـاول
أنحب فيقضى أم ضلال وباطل؟

ومطلع الثانية :

للــه نافلة الأجــل الأفضــل
وله العــلا وأثيث كل مؤثل

وفيهما اطلالة مؤرخ واعظ حكيم على تاريخ السابقين من ذوى الشأن والقوة والبـأس . وأرجوزته فى سلمان البـاهلى قاضى الـكوفة لعمر بن الخطـاب رضى الله عنه (١) .

ومقطوعته التى خاطب بها الرسول صـلى الله عليه وسلم حين أجدب قوم لبيد وأمحلوا(٢) ، ووصيتاه وهو يجود بنفسه لابنتيه — بر وأسماء — وأبى حنيف ابنه ، والوصية الأولى لابنتيه هى القصيدة الثامنة والعشرون ، والثانية لأبى حنيف هى القصيدة التاسعة والأربعون فى الديوان .

وللبيد الى جوار هذه القصـائد والأراجيز قصـائد ومقطوعات اسلامية أخرى تعج بالروح الاسلامية ، وتفيض بالمشاعر الدينية ، وتسـتلهم الذكر الحكيم ، كالقصـيدة الخامسة التى يتحدث فيها عن نفسه التى سمئت الحياة ، والتى مطلعها :

قضى الأمور وأنجـز الموعود
واللــه ربـى ماجـد محمـود

والقصيدة السادسة التى استهلها بقوله :

حمـدت اللــه واللــه الحميـد
ولله المؤثـل والعديـد

---

(١) الديوان ص ٣٣٧ .
(٢) الديوان ص ٢٧٧ .

كذلك مما تجدر الاشارة اليه ، أن عودة لبيد الى شعره الجاهلى فى الاسلام يهذبه ويشذبه ، ويبدل فى أبيـاته ، ويزيد فيها ، ويغير فى معانيه ، أمر غير بعيد ، وقد ادرك ذلك ابن حجر العسقلانى ، وهو يوجه الرأى القائل بهجـر لبيد الشعر فى الاســلام ، فقال : « نعم ويحتمل أن يكون زاد هذا البيت بخصوصه بعد أن أسـلم ، ويكون مراد من قال : انه لم ينظم شـعرا منذ اسلم ، يريد شـعرا كاملا لا تكميلا لقصيدة سبق نظمه لها » (١) . والعبارة الأخيرة من نص صاحب الاصابة هى التى تعنينا هنا ، لأنها تشير الى أن لبيدا عاد الى شـعره الجاهلى وزاد فيه أبيـاتا دينية . غير أننا لا نسلم بهذه الاشارة تسليما مطلقا ، لأنها تتعارض مع هذا الكم الهائل من شعر لبيد الذى نظمه فى الاسلام ، والذى كشفناعنه سلفا ، ولأننا لانكاد نلمح صداها الا فى قصيدة واحدة هى التى مطلعها : (٢)

كبيشة حلت بعـد عهدك عاقلا
وكانت له خبلا على النأى خابلا

فقد بدأهـا بالغزل ، وانتقـل الى وصف الحمـار الوحشى ، واستطرد الى الحديث عن كلاب الصيد ، ثم يعود على ما بدأ فيتحدث عن المرأة التى تنكرت له حين اشتعل رأسه شـيبا ،وهبت تلومه على كفه المثقوب ، وهنا اقحم لبيد هذه الأبيات :

رأيت التقى والجـود خير تجـارة
رباحا اذا ما المرء أصـبح ثاقـلا

وهل هـو الا ما ابتنى فى حيـاته
اذا قذفوا فـوق الضريح الجنـادلا

---

(١) الاصابة ٣٠٨/٣ .
(٢) الديوان ص ٢٣٢ .

وأثنوا عليـــه بالـذى كان عنـــده
وعض عليه العـائدات الأناملا (١)

ثم ينتقل بعدها الى وصف الناقة . والقصـــيدة على هذا النمط لاسبيل الى الشـــك فى كونها جاهلية ، « واذا تأملنا فى هذه الأبيات نجد أمرين ظاهرين : الأول : انهـا مقحمة فى القصـــيدة غريبة عنها ، فقـــد جاءت حيث لا يقتضيها الســياق . والثـــانى : أن فيها من المعـــانى الاسلامية مما لم يعهد عند الجاهليين ، وأن القارىء ليرى أصداء لآيات الله البينات فى قوله :

رأيت التقى والحمـد خير تجـــارة
رباحا اذا ما المـــرء اصـــبح ثاقلا

فالتقى والحمد من الالفاظ الاسلامية ، والبيت يذكـر بقول الله تعالى : « يا ايهـا الذين آمنوا هـــل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » وقوله تعالى :

« أولئك الذين اشتروا الضـــلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » والبيت الثانى :

وهل هو الا ما ابتنى فى حيـــاته
اذا قذفوا فوق الضريح الجنـــادلا

يعيد فى الأذهان الآية الكريمة « وأن ليس للانســـان الا ما سعى » (١) .

وعبثا تحاول العثور على قصـيدة أخرى تبرز هـــذه

---

(١) الديوان ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
(٢) انظر د. يحيى الجبورى فى كتابه : لبيد بن ربيعة ص ٣٩٤ وما بعدها .

الظاهرة التى رأيناها فى هذه اللامية ، والذين لا يقرون هذه الحقيقة لا ينصفون الرجل .

وعلى الرغم من ضآلة حجم هذه الفكرة فى شعر لبيد فاننى ما أردت اغفالها ، لتتلاحم أطراف القضية ، وليتقرر لدى القارىء بأمانة ودقة جميع شعر لبيد الذى قاله فى الاسلام .

ولا ريب أن هذا الكم الهائل من القصائد والمقطوعات والأراجيز التى نظمها الشاعر فى حياته فى الاسلام داحض للدعوى الشائعة القائلة : بأن لبيدا لم يقل فى الاسلام الا بيتا واحدا ، اختلف أصحاب هذه الدعوى حوله ، بل انهم شككوا فى نسبة البيت الى لبيد ـ كما أوضحنا سلفا .

بيد أننا نستطيع أن نؤكد على أن شاعرنا لم يكن فى ظلال الاسلام من شعراء المحافل ، كما كان حسان بن ثابت مثلا ، اذ كان قد قصر شاعريته وفنه على نفسه ، يصور خلجاتها ، ويمتح أغوارها ، ويتلمس أحاسيسها ، سواء أكانت دينية أم تفجعية ، ولعل ذلك ما حدا بهؤلاء الزاعمين الى دعواهم هذه ومشايعتها .

وهيهات لدعواهم أن تستمر ، فها هو ذا ضوء الصبح قد انبلج ، وتنفست الحقيقة فى عالم الضياء .

أبرز فنون شعر لبيد الاسلامى :

تناول لبيد فى شعره الاسلامى جملة أغراض ، كان من أبرزها : فن الرثاء وفن الحكمة .

فأما الرثاء فقد أكثر منه وأبدع فيه ، حتى ليعدمن أبرع

شعرائه وأشهرهم ، فى الوقت الذى تعد فيه الخنسـاء من أشهر شواعر هذا الفن ، وإذا كانت الخنساء قد بكت أخاها صخرا بكاء مرا حزينا ، وذاع اسم صخر بسـبب ما نظمته فيه ، فان لبيدا بكى أخاه لأمه « أربد » بكاء مرا حزينـا ، وذاع اسم أربد ببكاء لبيـد ، وتأسى ببكاء لبيـد أو بكاء الخنساء من بكى ذويه من المتـأخرين ، فهذا الحسين بن عبد الله البغدادى يقول فى رثاء أخيه أحمد :

غاية الحزن والسرور القضـاء
مالحى من بعـد ميت بقـاء

لا لبيـد باربـد ما حـزنا
وسلت صخرا الفتى الخنسـاء (١)

ويتشبه الصنوبرى فى بكائه بلبيد فى بكائه فيقول :

سأرثيك ما حنت حمـامة أيـكة
كانى لبيـد أو كانـك أربـد (٢)

وكذلك فعل ابن مقبل فقال :

وانـا وايـاكم وموعـد بيننـا
كمثل لبيـد يوم زايل أربـدا (٣)

وان حرارة الرثاء وشدة الحزن وكثرة التفجع والتهاب العاطفة متوازنة عند كل من الخنسـاء ولبيد ، وإذا كان ثمت فرق بينهما فهو الفرق بين جزع المرأة وتجلد الرجل ،

---

(١) معجم البلدان لياقوت ١٤/٤٥ .
(٢) شرح المضنون به على غير أهله ص ٥١٠ عن كتاب : لبيد ابن ربيعة للجبورى ص ٣٠٧ .
(٣) ديوان ابن مقبل ص ٦٤ تحقيق عزت حسن .

فالنساء « اكثر من الرجال ذكرا للوعة ، واكثر حديثا عن البكاء والدموع والفجيعة ، لان ضعفهن وأنوثتهن وسرعة انفعالهن كل اولئك يتجلى فى تصويرهن للترح بالحديث عن البكاء » (١) . فالخنساء تنوح وتندب من منطلق هذه الانوثة ، وتبكى فى أخيها العطف والحنان والرحمة والكرم والرجولة ، ولبيد الرجل يتحسر ويبكى فى أخيه البطولة والنجدة والسخاء ، ويرى فيه الفارس البطل والقائد القدوة .

ومن هنا ذهب الدكتور طه حسين الى تقديم لبيد فى هذا الفن على الخنساء ، والى العجب من هؤلاء الذين يقدمون الخنساء على لبيد ، فى قوله : « ولست أدرى كيف يمكن ان تقدم الخنساء عليه فى رثائها ، وهو عندى أبرع منها فى تصوير الحزن وصب اليأس فى القلوب صبا من غير ضعف ولا وهن » (٢) . وهذا حق !! فلبيد فى حزنه متجلد صبور عاقل ، وحزنه حزن حكيم يتدبر أرزاء الاقدمين من ملوك وعظماء .

والرثاء شغل حيزا كبيرا من شعر لبيد ، وجميع مراثيه فى اهله وعشيرته ، وليس له فى غيرهم رثاء ، حتى النعمان بن المنذر - كما أفصحت عن ذلك سلفا - .

وأجود رثاء لبيد وأصدقه عاطفة هو مارثى فيه أخاه أربد بن قيس بن جزء الذى كان يحبه لبيد حبا جما ، ويعجب به أيما اعجاب ، ولعل مرد ذلك الى أن أربد كان يرعى لبيدا ويعطف عليه ، كما كان يصنع معه عمه أبو براء ، اذ كان لبيد قد فقد أباه وهو صبى صغير ، ومن ثم تعلق بأربد - أخيه الأكبر - وأعجب به كما تعلق بعمه وأعجب به ، يدل على ذلك قول لبيد فى أربد :

---

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٤٨٩ .
(٢) حديث الاربعاء ٥٠/١ .

فهــل نبئت عن اخوين داما
على الأيـــام الا ابنى شـــمام

وكنت امامنـا ولنـا نظـاما
وكان الجـزع يحفظ بالنظـام

وليس الناس بعدك فى نقيـــر
ولاهـم غير اصـداء وهـام

فهو فى بيته الأخيــر يستهين بالنــاس بعد أربد ، ولا يرى فيهم خيرا ، فقد مضى الخيرون بمضــيه ، ويلح على هذا المعنى فى قوله :

ذهب الذين يعـاش فى أكنـافهم
وبقيت فى خلـف كجلـد الأجـرب

يتــاكلون مغــالة وخيـانة
ويعــاب قائلهـم وان لـم يشـغب

يا أربد الخيـر الـكريم جـدوده
خليتنى أمشــى بقــرن أعضــب

ويذكر فضائله ومناقبه ، ويذم الدهر الذى انحى عليه بهذا الرزء فى قوله :

عميـد أناس قـد اتى الدهـر دونـه
وخطـوا له يوما من الأرض مضـجعا

لعمــر ابيـك الخيـر يا ابنـة أربـد
لقد شـفنى حـزن أصـاب فاوجعـا

فــراق أخ كان الحبيب ففـاتنى
وولـى بـه ريب المنـون فاسـرعا

فعينـــى اذ أودى الفـــــراق بأربـــد
فــلا تجمـــدا أن تســـتهلا فتدفعا

فتى عـــارف للحـق لا ينـــكر القـــرى
تـــرى رفـده للضـــيف ملآن مترعـــا

لحـا اللـه هـــذا الـــدهر انى رأيتـــه
بصـــيرا بمـا ســـاء ابن آدم مولعـــا

ويطنب لبيد فى الحديث عن خصـــال أربد الخيرة ، كالشـــجاعة والكرم والنجدة والعفو والوفاء ، ولم يغـــادر لبيد مكرمة أو فضيلة دون أن يعزوها لأربد ، على غرار :

فتى كـــان أمـــا كـــل شـــىء سألته
فيعطـــى وأمـــا كـــل ذنب فيغفـــر

و ..
ألا ذهب المحـــافظ والمحـــامى
وحـــامى ضـــيمنا يوم الخصـــام

و ..
ممقـــر مـــر علـــى أعـــدائه
وعلـــى الأدنين حلـــو كالعســـل

و ..
اذا اقتصـــدوا فمقتصـــد أريب
وان جاروا ســـواء الحق جارا (١)

وهكذا يسترسل لبيد فى ذكر مناقب أربد وتفصـــيل مكارمه، حتى جمع له كل معـــانى المروءة التى يتمثلها فى الفارس العربى الكامل .

ومراثى لبيد فى أربد نوعان : نوع يحســـبه الرائى

(١) الديوان ص ٢٠٨ ، ١٥٣ ، ١٧٣ ، ١٦٧ ، ٢٠١ ، ١٩٧ .

رثاء جاهليـــا ، لخلوه من روح التدين ، وهو الذى نظمه حين كانت المصيبة فى أولها والنفوس جزعة متحمســـة ، والمشـاعر فياضـــة بالحزن والأسى ، وينهض على البكاء والاستبكاء واللوعة والجزع ، وفيه يتحدث عن شـــخص أربد ، وعن تخرقه فى الكرم وشرب الخمر والميسر وسائر صور الفتوة ، وقد أصـــاب لبيد المحز والمفصل لأن التلميح الى النواحى الدينية قد كان يضـعف طبيعة الرثاء لشخص يقوم مجده عنده على المآثر الجـــاهلية ، ومن ثم يتضـح الصدق الفنى فى هذا الرثاء .

ومما يؤكد هذا الصدق الفنى أن هذا النوع من الرثاء جاء مقطوعات ، خالية من الصنعة ، تدور حول الموضـوع ذاته لا تتعداه الى أفكار أخرى ، فما هى الا عواطف مكبوتة وحسرات وزفرات ينفثها الشاعر كيفما تسنى له فنه وسنح قريضـــه ، كالمقطوعة الســـابعة عشرة والتاســـعة عشرة والحادية والعشرين والثانية والعشرين والثالثة والعشرين والخامسة والعشرين فى الديوان .

أما النوع الثـانى فهو الذى نظمه بعد أن اســـتقرت نفســـه ، وكاد ينسى حزنه على أربد ، وكان قد أوغل فى الحياة الاسلامية ايغالا واضـحا ، فمبعثه الذكرى ومهيجه الحنين ، ومن هنا وشت قصائده التى نظمها فى هـــذه الآونة مسحة من الحزن ، وطبعتها الأفكار الناضجة الدالة على ســـعة الأفق ، وتدبر الفكر ، حيث نظر فى المصـــير المحتوم للانسان ، واعتبر بمصائر السابقين ، وتعزى عن فقد أخيه بأن الموت غاية الأحياء ، لقد حلت الحكمةوالتأمل والاعتبار محل اللوعة واليأس والبكاء ، وطالت القصائد ، وظهر فيها الاســـتطراد ، كالقصـــيدة الرابعة والعشرين والسادسة والعشرين والســـابعة والعشرين ، هـــذا وأن الانسان المتأمل يستشعر من خلال ما يقرأ للبيد جلال الموت ورهبته :

فـــلا تبعـــدن أن المنيـة موعـــد
عليـــك فدان للطـلوع وطـــالع

أعـــاذل مـــا يدريـــك الا تظنيـــا
اذا ارتحل الفتيـــان من هو راجـع

تبكى على اثر الشـباب الذى مضى
الا ان أخـــدان الشـــباب الـــرعارع

اتجزع ممـــا أحدث الـــدهر بالفتى
وأى كريم لم تصـــبه القوارع (١)

وللبيد الى جانب هـــذا الرثاء رثاء لأهله وذوى قرباه وأبطال قومه ، الذين صور قبورهم وسط رياض تحفهـــا أزاهير ، وهى صـــورة حضرية ، اذ لم يقتصر على الدعاء لهم بالسقيا :

فشـــيعهم حمـــد وزان قبورهـــم
ســـرارة ريحـان بقاع منور (٢)

ويتاسى بالعظماء الذين مضـــوا ، وعفى على ذكرهم الزمان :

وشـــمط بنى ماء الســـماء ومردهـــم
فهـــل بعدهم من خالـــد أو معمر ؟!

ومن فـــاد مـــن اخوانهـــم وبنيهـــم
كهـــول وشـــبان كجنـــة عبقـــر

مضـــوا سلفا قصـــد الســـبيل عليهم
بهن من الســـلاف ليس بحيـــدر (٣)

---

(١) الديوان ١٧١ ، ١٧٢ .
(٢) الديوان ٥٣ .
(٣) الديوان ٥٤ .

ويسعى النــــاس الى حتوفهم متتــــابعين ، فنهايتهم محتومة ، وأيامهم فى الحياة معدودة :

هـــل النفس الا متعـة مســـتعارة
تعار فتـــاتى ربها فرط أشــهر (١)

وللبيد الى جانب هذا مراث فى عمــــه أبى براء - كشــفت عنها من قبـــل - والرثاء موضـــوع يتفق والروح الاسلامية ، فى الايمان بالقدر ، واتيان الموت على كل حى، والبعث والنشور وما يتبعهما من ثواب وعقاب ، وفى رثاء لبيد تبرز النزعة الانســـانية والتـأملات العقلية ، والعبرة والموعظة ، والاستسلام لأمر الله ، ورثاؤه تعبير صادق عن مشاعره وترجمة أمينة لعواطفه واحاسيسه .

وأما الحـــكمة : ففن قديم ، جاء نتيجة التجـــاريب الطويلة والنظر الثاقب والبصيرة النافذة والتفكير والتامل فى قضايا الناس وحيواتهم وسعى الانسان وغايته ونهايته، ثم الاحساس الدقيق بالحياة.

ولبيد واحد من حكماء العرب كما أكد الجاحظ (٢) . فقد أجمع الرواة والمؤرخون على أنه كان مترويا متعقلا ، ذا رأى وحلم ، وهذا راجع الى نشاته وأسفاره ، ومجالس الملوك التى كان يغشاها ، وعمره الذى طال حتى ســـئم منه ، ومن هنا جاءت الحكمة فى شعر لبيد ناضجة متميزة عنها فى شـــعر غيره « فقد جمع فى شـــعره الحكمى كل الصفات التى ذكرها غيره ، وزاد عليها أن ســـما بها الى الله ، فاليه المرجع واليه يتوجه الناس وهو مصدر عزائهم، وأفكار لبيد واسعة الآفاق فقد عالج قضايا كبرى تتصـــل بالانسان ومصيره على حين نجد حكمة زهير حكمة مادية حسية فيها وعظ وارشاد ، أما أمية بن أبى الصلت فيصور ويخبر ويقص قصصـا دينيا ، وعدى بن زيد بكاء متشائم

---

(١) الديوان ٥٧ .
(٢) انظر البيان والتبين ٣٦٥/١ .

يائس ، وطرفة لاه يعب من اللذات ، ويهتبل الفرص ، ويعيش ليومه بل لساعته » (١) .

وهذا السمو الفكرى والروحى أشد ما يكون تألقا فى شعره الاسلامى ، فلقد أشرب قلبه حب الأيمان ، وتغلغل الاسلام بقيمه ومبادئه فى أعماقه ، ومن ثم تأتى حكمه مدثرة بدثار النغمة الروحية الصافية ، فى سياق تسبيح الله عز وجل وتوحيده وذكر الدين ، وتأتى للعبرة والموعظة من خلال الاطلالة على الماضين ، وتأتى فى رداء كئيب حزين حين يبكى موتاه ، وتأتى مثقلة بآلام السنين المتطاولة ووطأتها فيها السأم والضجر والملل ، وبخاصة حين يتحدث عن الشيخوخة وتطاول العمر « وهكذا تتوالى حكمه أبياتا شاردة وأمثالا يتمثل بها ، أو قصائد طويلة النفس تزدحم فيها الآراء وتجارب السنن » (٢) .

ولشاعرنا قصيدتان طويلتان فاضتا بالحكمة ، أولاهما خلصت للعبرة والموعظة وتقرير ما يحمله بين جنبيه من ايمان بالله وإذعان له ويقين بالبعث والحساب ، وثانيتهما فى الرثاء ، وربط الرثاء بالحكمة ليس عجبا ، فالرثاء يدعو الى التفكير فى الحياة والموت وتذكر الماضين الذاهبين ، وهو فى الأولى يرى أن الحياة سعى باطل ، وفناء يعم الجميع ، وان رغبات الانسان وحاجاته لا تنتهى ما عاش ، فى قوله : (٣)

ألا تسألان المرء ماذا يحاول
أنحب فيقضى أم ضلال وباطل ؟!

حبائله مبثوثة بسبيله
ويفنى اذا ما أخطأته الحبائل

---

(١) لبيد بن ربيعة للجبورى ص ٣٣٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٣٣ .
(٣) القصيدة فى الديوان ص ٢٥٤ وما بعدها .

اذا المـــرء أســـرى ليلـــه ظن أنه
قضى عمـــلا والمرء ما عاش عامـل

ويذكر الناس بافاعيل الزمان بمن مضـوا ، ويدعوهم الى الاعتبار بهؤلاء الذين أخنى عليهم الدهر :

فقـــولا لـــه ان كـــان يقســـم مالـــه
ألمـا يعظـك الدهـــر أمك هـــابل !!

فتعلـــم أن لا أنت مـــدرك ما مضـــى
ولا أنت ممـــا تحـــذر النفس وائـــل

فان أنت لم تصـــدقك نفســـك فانتسب
لعـــلك تهـــديك القـــرون الأوائـــل

فان لم تجـــد من دون عدنان باقيـــا
ودون معـــد فلتزعـــك العـــواذل

ويتجه لبيد بمن يعظهم الى الله الذى يحصى أعمـال العباد ، ويذكرهم بأن كل نعيم فى هذه الحيـــاة عرض زائل ، ولســـوف يعلم كل امرىء يوم العرض على اللـــه ما قدمت يداه :

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم
بلى : كلذى لب الى الله واســـل

الا كل شـــىء ما خـلا اللـــه باطـــل
وكـــل نعيم لا محـــالة زائـــل

وكل أناس ســـوف تدخـــل بينهم
دويهية تصـــفر منهـــا الأنامـــل

وكل امرىء يوما سـيعلم سـعيه
اذا كشـفت عند الاله المحاصـل

ولبيد فى القصيدة الثانية يقرر ما يقرره واقع الناس والحياة ، فالناس صائرون الى بلى ، وأن حـركة الوجود باقية مستمرة ، والاجيال تتعاقب ، والنجوم على اختلافها طلوعا وغروبا باقية ، والجبال ثابتة مستقرة فى مكانهـا لا تريم ، وما الانسـان الا شىء يسير ، كالشـهاب يشرق فيبهر الأبصار ، ثم لا يلبث أن يستحيل رمادا تذروه الريح ، فما أشد غرور الانسان وحبه للبـاطل ، وثقته بمالا ينبغى أن يثق به فيقول (١) :

بلينا ومـا تبلى النجوم الطوالـع
وتبقى الجبال بعدنا و المصـانع

وقـد كنت فى أكناف جار مضـنة
ففـارقنى جـار بأربـد نافـع

فـلا جزع ان فرق الـدهر بيننـا
وكـل فتى يوما به الدهـر فاجع

فـلا أنا ياتينى طـريف بفرحـة
ولا أنا ممـا أحدث الدهـر جازع

وما النـاس الا كالديار وأهلهـا
بهـا يوم حلوها وغـدوا بلاقـع

وما المرء الا كالشـهاب وضـوئه
يحور رمادا بعـد اذ هو سـاطع

---

(١) القصيدة فى الديوان ص ١٦٨ وما بعدها .

وما البـر الا مضـمرات من التقى
وما المـال الا معمرات ودائـع
وما المـال والأهلون الا وديعـة
ولابـد يوما أن تـرد الودائـع

ويتـأمل فى النـاس وحيـاتهم ، كيف يحيون ؟ وما نصيبهم من السعادة والشقاء ؟ وما مصيرهم اذا أرخى لهم حبل العمر ؟. ويصـور ثقل الشيخوخة ، ويسـتحيل مؤرخا يخبر عن نفسه وعن الامم البائدة لتجـد موعظته صداها فى النفوس :

وما النـاس الا عاملان : فعـامل
يتبـر مـا يبنى وآخـر رافـع

فمنهـم سـعيد أخـذ لنصـيبه
ومنهـم شـقى بالمعيشـة قانع

اليـس ورائـى أن تراخت منيتى
لوز العصا تحنى عليها الاصابع ؟!

أخبر اخبـار القـرون التى مضت
أدب كـأنى كلمـا قمت راكـع

فأصبحت مثل السـيف غير جفنه
تقادم عهـد القين والنصـل قاطع

فلا تبعـدن ان المنيـة موعـد
عليك فـدان للطلـوع وطالـع

فالمنية موعد للمرء يلقاها وتلقـاه ان عاجلا أو آجلا ، فلا يتعلل بالسـخف من أحاديث العـائفين والقـائفين والمستشيرين للحصى ، والمتحدثين عن الغيب ، فأمر هـذا كله باطل ، وأمر الغيب الى من استأثر بعلم الغيب :

لعمرك مـا تـدرى الضـوارب بالحصـى
ولا زاجـرات الطيـر مـا اللـه صـانع

سـلوهن أن كـذبتمونى متـى الفتـى
يـذوق المنـايا أو متـى الغيث واقـع ؟!

وللبيد نظرات فى سلوك الناس صائبة ، فهو يحض على الأخلاق ، ويدعو الى الذكر الحسـن ، فيحث على التقوى والحمد والبر والصلاح فى قوله :

رأيت التقى والجود خير تجـارة
رباحا اذا ما المـرء أصـبح ثاقلا

وهـل هو الا ما ابتنى فى حيـاته
اذا قذفوا فـوق الضريح الجنـادلا

وأثنوا عليـه بالـذى كان عنـده
وعض عليـه العـائدات الأناملا

ويقرر أن السعيد حقا من طهر ساحته من العيوب :

أكرمت عرضى أن ينـال بنجـوة
ان البـرىء من الهنـات سـعيد

وأن قمة السعادة فى تقوى الله :

فان اللـه نافلـة تقـاه
ولا يقتالهـا الا سـعيد

وأن الحياة تهدم كل طريف وتبلى كل جديد :

وأبوك بسـر لا يفند عمـره
والى بلى مـا يرجعن جديـد

وأن الانسان ضعيف ، والدهر قوى ، تمضى الأيام وتاتى ، والانسان يضعف ويهزل :

وأراه ياتى مثل يوم لقيته
لم ينصرم وضعفت وهو شديد

وأن الانسان ينبغى أن يكون وفيا ، يكافىء الناس بمثل ماكوفىء :

فاذا جوزيت قرضا فاجزه
انما يجزى الفتى ليس الجمل

وان يكون المرء ماضى العزيمة قوى الارادة ، لا يطاوع شهوات النفس فتقعد به دون آماله ، وأن يتزود من التقوى :

واكذب النفس اذا حدثتها
ان صدق النفس يزرى بالأمل

غير أن لا تكذبنها فى التقى
واخزها بالبر لله الأجل (١)

وللبيد الى جانب هذا كله فى ظلال الاسلام أمثال حفل بها شعره ، يضربها تارة ويصوغ حكما تجرى مجرى الأمثال تارة أخرى ، ومن ذلك قولهم : « طال الأبد على لبد » وقولهم : « مخالب تنسر جلد الأعزل » (٢) . فقد عمد لبيد اليهما وحكاهما فى قوله : (٣)

---

(١) الديوان ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ وص ٣٧ ، ٣٨ وص ٣٥ ، ٣٦ وص ١٧٩ ، ١٨٠ .
(٢) مجمع الامثال ٤٢٩/١ ، ٣١٦/٢ .
(٣) الديوان ص ٢٧٤ .

ولقـــد جرى لبـــد فادرك جـــريه
ريب الـــزمان وكان غيـر مثقـــل

لمـا راى لبـد النســـور تطـــايرت
رفـــع القوادم كالفقيـر الاعـــزل

ومن حكمه التى جرت مجرى الأمثال قوله : ان الطالب الحمد مشترى .

وقوله :

ان البرىء من الهنات سعيد

وقوله :

والحق يعرفه ذوو الألباب

وقوله :

انما ينجح أصحاب العمل

وقوله :

انما يجزى الفتى ليس الجمل

والحكمة فى شعر لبيد الاسلامى تتسم بسمات أبرزها :

١ - ذيوع الاتجاه الدينى فى تضاعيفها ، هذا الاتجاه المتمثل فى تســـبيحه لله عز وجل وتقديســـه وتوحيده ، وبيان قدرته وآلاته ونعمائه ، وأوبة النفوس اليه ، كمـــا فى قوله :

انمـــا يحفظ التقى الأبــــرار
والى اللـــه يســـتقر القـــرار

والى اللـــه ترجعون وعنـــــد
اللـه ورد الأمـــور والاصـــدار

كل شيء أحصى كتابا وعلمـــا
ولـــــديه تجلـــت الأســـرار

وقوله :

ان تقـــوى ربنـا خير نفـــل
وبـــاذن اللـــه ريثى وعجـــل

أحمـــــد اللــــه فلانــد لـه
بيــديه الخيـــر ما شـــاء فعـل

من هداه ســـبل الخير اهتدى
ناعم البـــال ومن شـــاء اضـــل

٢ ـ الاستفاضة فى فلسفة الفناء وتربص المنايا بالانسان، والزمان الذى ضاق بغدره ، والأيام وما تخبئه للناس من بؤس وشقاء ، فقد أيقن أن الناس سائرون زرافات ووحدانا نحو الفنـــاء يتتـابعون ، وأنهم مهمـــا كثروا فان الموت يتخطفهم ، وسيغدون عما قريب قلة ، على نحو قوله :

فهـــون ما ألقى وان كنت مثبتـــا
يقينى بأن لاحى ينجـو من العطب

وقوله :

كـــل بنـــى حـــرة مصـــيرهم
قـــل وان اكثـــرت مـــن العـــدد

ان يغبطوا يهبطـــوا وان أمـــروا
يومـــا يصـــيروا للهلك والنـــكد

وقوله فى أربد :

فاعتافه ريب البرية اذ رأى أن لا خلودا

وقوله :

ويمضون أرسالا ونخلف بعدهم
كما ضم أخرى التاليات المشايع

وقوله :

لحا الله هذا الدهر انى رأيته
بصيرا بما ساء ابن آدم مولعا

وقوله :

وانا قد يرى ما نحن فيه
ونسحر بالشراب وبالطعام
كما سحرت به ارم وعاد
فأضحوا مثل أحلام النيام (١)

٣ — الاطلالة على تاريخ الماضين من ملوك وعظماء وأبطال وأمم أبادهم الدهر ، وفعل بهم الزمان أفاعيله ، وعفت على آثارهم السنون ، وغاية لبيد من ذلك الوصول الى النتيجة الحتمية وهى : أن العظمة لم تغن العظماء من الموت فتيلا ، وأن القوة والجبروت لم يغنيا أصحابهما يوم الحين شيئا ، فتكون العبرة والموعظة والعزاء ، من ذلك قوله : (٢)

وأفنى بنات الدهر أرباب ناعط
بمستمع دون السماء ومنظر

---

(١) الديوان ص ٤١ ، ١٧٤ ، ٢ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ٢٠٩ .
(٢) الديوان ص ٥ وما بعدها .

وبالحـارث الحراب فجعن قومـه
ولـو هاجهم جـاءوا بنصر مـؤزر

وأهلـكن يومـا رب كنـدة وابنـه
ورب معـد بين خبت وعـرعـر

واعوصن بالدومى من رأس حصنه
وأنزلن بالأسـباب رب المشـقر

واخلفن قسـا ليتنى ولـو اننى
وأعيـا على لقمان حـكم التـدبر

فـان تسـالينا فيم نحن فاننـا
عصـافير من هذا الأنام المسـحر

نحـل بلادا كلهـا حـل قبلنـا
ونرجو الفـلاح بعـد عاد وحميـر

وقوله :

غلب الليـالى خلف آل محـرق
وكمـا فعلـن بتبـع وبهـرقل

وغلبن أبرهـة الـذى ألفينـه
قـد كان خلـد فوق غرفة موكـل

والحـارث الحـراب خلى عاقـلا
دارا أقـام بهـا ولـم يتنقـل

تجـرى خزائنـه على من نابـه
مجرى الفرات على فراض الجدول

والشـــاعرون النــــاطقون أراهمـــو
سلكوا ســـبيل مرقش ومهلهل (١)

ويتلمس الموعظة بموت النعمان بن المنذر فى براعـة تامة ، اذ واءم بين أطراف الموضـــوع ، فوقف بنـا على النعمان الجاهلى ومجالس شرابه ، وتخرقه فى الـــكرم ، وجنده وعتاده ، وحصونه وقلاعه ، رغبة فى ضمان وصول موعظته الى القلوب ، ومقررا أن الجاهل هو من ســولت له نفسه الخلود والبقاء :

فان امرءا يرجو الفلاح وقـــد رأى
ســـواما وحيـا بالافاقـــة جاهـل

والعظمة ما حالت بين العظماء والموت :

فبادوا فمــا أمسى على الأرض منهم
لعمرك الا أن يخبــر ســـائل ...

وأمسى كأحـــلام النيـــام نعيمهم
وأى نعيم خلتـــه لا يزايـل ؟! (٢)

والفت النظر الى أن ما قاله لبيد فى النعمان ليس من باب الرثاء ، وانما من قبيل التماس الموعظة واذكاء العبرة بموته على ما كان له من مجد وسؤدد ، على شـاكلة حديثه عمن باد من عظماء الأرض الذين يعرفهم ..

٤ ـ السأم والبرم بالحيـاة ، والضيق بامتـداد العمر والتذمر من الشيخوخة : فقد احتملت نفس لبيد الحياة فى

---

(١) الديوان ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .
(٢) القصيدة فى الديوان ٢٥٤ ، ٢٦٦ .

شجاعة وصبر ، ثم طالت عليها الحيـــاة ، وثقل عليها رفق الناس بها ، وعطف الناس عليها ، وســـؤال الناس عنها ، فسئمت ذلك وضاقت به ذرعا ، وأعلنت فى صراحة هـــذا السأم :

ولقـــد ســـئمت من الحيـــاة وطولهـــا
وسؤال هذا النـاس : كيف لبيد ؟! (١)

لقد مل لبيد حياته وسئم البقاء فيها ، لأن امتداد عمره ما أســـلمه الا الى شـيخوخة فانية وجســـم هزيل وعجز وضعف :

اليس ورائـــى ان تـــراخت منيتى
لزوم العصا تحنى عليها الأصـــابع

أخبر أخبـــار القـــرون التى مضت
أدب كـــأنى كلمـــا قمت راكـــع

ولم لا يسأم الحياة التى أسلمته الى أرذل العمر مادام الموت يترصده ، وأنه فى انتظار أجله ؟!:

فـــلا تبعدن ان المنية موعـــد
عليك فدان للطلوع وطالع (٢)

ولبيد لذلك لا يحفل متى يأتيه أجله ، فحسبه من أيامه ما مضى :

فمتـــى أهلك فـــلا أحفلـــه
بجلـــى الآن من العيش بجـــل

---

(١) الديوان ص ٣٥ .
(٢) الديوان ص ١٧٠ وما بعدها .

من حيـــاة قــد مللنا طولهـــا
وجدير طــول عيش أن يمـــل

وواضح أن القضايا التى عالجها لبيد فى شعره الحكمى قضايا انسانية عامة ، تدور فى مجال واسع ، ويرن صداها فى النفس الانســـانية ، مما كتب لها البقاء ، واكســـبها الخلود ٠

ولبيد علم من أعلام شـــعراء الحكمة الاســـلاميين ، الذين أثرى الاسلام أفكارهم فبرعوا فى هذا الفن ، وحكم لبيد ـ كما بدا لنا ـ قواعد وأسس فى السلوك والأخـــلاق سار على نسقها من جاء بعده ٠

هذا وان الجوانب المتعددة فى حكم لبيد والتى كشفت عنها هذه الدراســـة لتؤكد ان الرجل لم يجبـل فى ظلال الاسلام ، وانما يظل يقرض الشعر ٠

* * *

القسم الرابـــع

اثر الاسلام فى شـــعر لبيد

١ ـ اثر الاسلام الروحى فى شعر لبيد

٢ ـ أثر الاسلام الفكرى والانسانى فى شعر لبيد

٣ ـ أثر الاسلام فى الفاظ وأساليب شعر لبيد

٤ ـ أثر الاسلام فى البناء الفنى

أثر الاسلام الروحى
فى شعر لبيد

الاسلام بما ينطوى عليه من خضوع وانقياد لله عز وجل ، وسلوك خلقى كريم ، يقابل الجاهلية بما تدل عليه من النزق والسفه والطيش والظلم والتمدح به والثورة لاتفه الأسباب . هذا الاسلام الذى رضيه الله دينا لعباده ، والذى تكفل بسعادة الناس جميعا ، غرس فى نفوس اتباعه قيمه الروحية ، المتمثلة فى ايمانهم بخالقهم وبوحدانيته ، وبعلمه الغيب ، وبقدرته وسلطانه ، وبعقابه ورحمته ، وبرسله وكتبه وملائكته ، وفى : الايمان بالموت والبعث والثواب والعقاب ، وبالعمل الصالح ، والامتثال لأمر الله ، والانتهاء عن نواهيه . وما اليها من هذه المثل العليا التى اشربت حبها والاذعان لها قلوب المسلمين المؤمنين .

وبدا أثر ذلك واضحا فى الشعر فى عصر صدر الاسلام ، فقد جاء شعر هذا العصر يحمل كثيرا من هذه القيم الروحية ، متاثرا بدستور الاسلام الخالد القرآن الكريم .

ولم يكن لبيد الشاعر المخضرم فى شعره الاسلامى ببعيد عن التاثر بهذه القيم الروحية الاسلامية .

لقد تعمق الاسلام فى قلبه ، وتغلغل حبه فى ضميره ، واشربت روحه حب هذه العقيدة الغراء ، فانطبعت مبادئها على صفحة شعره ، كما انطبعت على صفحة قلبه ، ولا غرو !! فان تاثر لبيد بقيم الاسلام الروحية واضح وجلى ، يكشف عن وضوحه وجلائه شعره فى ظلال الاسلام .

فقد أفصح شـعره عن ايمان الشـاعر بوحدانية الله وقدرته وهيمنته على كل شيء ، كما في قوله :

ان تقـوى ربنـا خيــر نفـل
وبـاذن اللــه ريثى وعجــل

أحمــد اللــه فلا نــد لــه
بيـديه الخيـر ماشــاء فعـل

من هداه سـبل الخير اهتـدى
ناعم البـال ومن شـاء أضــل

وقوله :

قضى الأمـور وأنجــز الموعــود
واللــه ربــى ماجــد محمــود

ولـه الفواضـل والنوافــل والعـلا
ولــه أثيث الخيــر والمعــدود

وقوله :

حمــدت اللــه واللــه الحميــد
وللـــه المؤثـــل والعــديد

فــان اللــه نافلــة تقـــاه
ولا يقتالهـــا الا ســـعيد

وقوله :

للــه نافلــة الأجــل الأفضــل
ولـه العـــلا وأثيث كل مؤثل

لا يستطيع النـاس محو كتـابه
أنـى وليـس قضـاؤه بمبـدل

سـوى فاغلق دون غـرة عرشـه
سـبعا طبـاقا فـوق فـرع المنقـل

والأرض تحتهـم مهـادا راسـيا
ثبتت خلائقهـا بصـم الجنـدل

والمـاء والنيـران مـن آياتـه
فيهن موعظـة لمـن لـم يجهـل

بـل كل سـعيك باطـل الا التقى
فاذا انقضى شىء كان لم تفعل (١)

وقد نهل الشاعر — كما ترى — من آى الذكر الحكيم : « وتزودوا فان خير الزاد التقوى » و « تبارك الذى بيـده الملك وهـو على كل شىء قدير » و « قل هو الله أحـد » و « الله لا اله الا هو الحى القيوم » و « بيدك الخيـر انك على كل شىء قدير » و « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » و « الا له الخلق والأمر تبـارك الله رب العالمين » و « الحمد لله رب العـالمين » و « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » و « بيده الخير وهـو على كل شىء قدير » و « ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » و « وكان أمر الله قدرا مقدورا » و « افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج، والأرض مددناها والقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » و « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » .

كذلك برز أثر الاسلام الروحى فى ايمان لبيد بان الله

(١) الديوان ص ١٧٤ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٢٧١ .

هو الباقي بلا حدود ، وان كل من عداه يأتي عليه الفناء ، من ذلك قوله :

الا كل شيء مـا خـــلا اللــه باطــل
وكـــل نعيـــم لا محـــالة زائـــل

وكل اناس ســـوف تدخـــل بينهم
دويهية تصـــفر منهـــا الانامـــل

وقوله :

ما ان تعـــرى المنـــون من احـــد
لا والـــد مشـــفق ولا ولـــد

وقوله :

لو كـــان شيء خالـــد لتـــواءلت
عصـــماء مؤلفة ضـواحي ماســـل

بظلوفهـا ورق البشـــام ودونهـــا
صـــعب تـزل ســـراته بالاجـــدل

أوذو زوائـــد لا يطـــاف بأرضـــه
يغشـى المهجـــج كالذنوب المرســـل

في نابـــه عــوج يجـــاوز شـــدقه
ويخـــالف الاعلـــى وراء الاســـفل

فأصـــابه ريب الزمان فأصـــبحت
أنيـــابه مثـل الـــزجاج النصـــل

وقوله :

من يبسط الله عليه أصبعا
بالخير والشر بأى أولعا
يملأ له منه ذنوبا مترعا
وقد أباد ارما وتبعا
وقوم لقمان بن عاد أخشعا
اذ صارعوه فأبى أن يصرعا

وقوله :

فهون ما ألقى وان كنت مثبتا
يقينى بأن لاحى ينجو من العطب (١)

يبرز فى تضاعيف هذه الأبيات ايمان لبيد المسلم بأن البقاء والخلود لله عز وجل ، وأن كل من فيها من بشر وما فيها من نعيم عرض زائل ، وان الفناء يأتى على كل خلق الله .

وهذه القيم الروحية نراه يقتبسها من قول الله تعالى: « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام» و « كل شىء هالك الا وجهه » .

كما يتألق فى شعره الاسلامى ايمانه العميق بالموت والبعث والحساب ، كما فى قوله :

انما يحفظ التقى الأبرار
والى الله يستقر القرار

والى الله ترجعون وعند
الله ورد الأمور والاصدار

---

(١) الديوان ص ٢٥٦ ، ١٥٨ ، ٢٧٢ ، ٣٣٧ ، ٣ .

كل شيء أحصى كتـــابا وعلما
ولديـــه تجلت الأســـرار

يـــوم أرزاق من يفضـــل عم
موســـقات وحفـــل ابـــكار

فاخرات ضروعها فى ذراهـــا
وأناض العيـــدان والجبـــار

يوم لا يدخل المدارس فى الرحـ
ـمة الا بـــراءة واعتـــذار

وحســـان اعـــدهن لاشـــها
د وغفـــر الـــذى هـــو الغفـــار

ومقـــام اكـــرم به من مقـــام
وهـــواد وســـنة ومشـــار

ان يكون فى الحياة خير فقد اذ
ـظرت لو كان ينفع الانظـــار

عشت دهرا ولا يدوم على الايـ
ـــام الا يرمـــرم وتعـــار ...

هلكت عامـــر فلم يبق منهـــا
برياض الاعـــراف الا الـــديار

وقوله بعـــد حديثه عن عظة الموت ، وكيف ياتى على الملوك والأمم :

فبـــادوا فمـــا أمسى علـــى الأرض منهـــم
لعمـــرك الا أن يخبـــر ســـائل

كـــان لم يـــكن بالشـــرع منهـــم طـــلائع
فلم ترع ســـحا فى الربيـــع القنـــابل

وبالـــرس أوصـــال كـــان زهاءهـــا
ذوى الضـــمر لمازال عنهـــا القبـــائل

وغســان ذلت يــوم جلــق ذلــة
بســـيدها والأريحـــى المنـــازل

رعــى خــرزات الملك عشــرين حجــة
وعشــرين حتى فــاد والشــيب شــامل

وأمســـى كأحـــلام النيـــام نعيمهـــم
وأى نعيــم خلتـــه لا يزايـــل

تـــرد عليهـــم ليلـــة أهلكتهـــم
وعــام وعـــام يتبـــع العـــام قابـــل

وقوله فى اربد :

لـن تفنيـــا خيـــرات أر
بـــد فابكيـــا حتـــى يعـــودا

قـــولا هـــو البطـــل المحـــا
مى حين يكســـون الحديـــدا

ويصـــد عنـــا الظـــالميـ
ـن اذا لقينـــا اليوم صـــيدا

فاعتـــاقه ريـــب البـــريـ
ـــة اذ رأى ان لا خلـــــودا

فثــوى ولـــم يوجـــع ولـــم
يوصب وكان هو الفقيـدا (١)

---

(١) الديوان ص ٤١ ، ٢٦٥ ، ١٦٣ ، ٢١٣ .

فنراه يستمطر الدمع ويستثير البكاء على أربد ذى الخيرات ، الذى يجب أن يتواصل البكاء عليه حتى يعود يوم الدين ، ويبعث النـــاس من قبورهم ، ثم يؤكد على حقيقة هامة أخرى آمن بها تتمثل فى أنه لاحى يخلـد فى هذه الحياة ، وما متاعها الا الى زوال . والى هذا يشير قوله :

تمنى ابنتـاى أن يعيش أبوهمـا
وهـل أنا الا من ربيعـة أو مضر ؟!

وتأمل نظرات لبيـد الصـائبة فى الوجود من بشر ومظاهر طبيعية ، فقد تقرر لديه ـ وهذا هو الحـال ـ أن الناس أسرع فناء من مظاهر الطبيعة ، فالجيـل من البشر ياتى عليه الموت ويدركه العدم ، بينما ماشيد من قصور ، وما خلق الله من نجوم وجبال باقية ، يحيا عليها جيل آخر ، فالحياة مستمرة على الأرض ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فى قول لبيد :

بلينـا وما تبلى النجوم الطوالـع
وتبقى الجبـال بعدنا والمصـانع

وقد كنت فى اكنـاف جار مضـنة
ففـارقنى جـار باربـد نافـع

فـلا جـزع أن فـرق الدهـر بيننـا
وكـل فتى يوما به الدهـر فاجـع

فـلا أنـا ياتينى طـريف بفرحـة
ولا أنا ممـا أحدث الدهـر جازع

وما الناس الا كالديار وأهلهـا
بهـا يوم حلوهـا وغدوا بلاقـع

وما المرء الا كالشهاب وضوئه
يحور رمادا بعد اذ هو ساطع

وما البر الا مضمرات من التقى
وما المال الا معمرات ودائع

وما المال والأهلون الا وديعة
ولابد يوما أن ترد الودائع

ويمضون أرسالا ونخلف بعدهم
كما ضم أخرى التاليات المشايع

ويقرر حينئذ أن الناس يوم العرض على الله للحساب نوعان : خاسر ورابح ، قائلا :

وما الناس الا عاملان : فعامل
يتبر ما يبنى وآخر رافع

فمنهم سعيد آخذ لنصيبه
ومنهم شقى بالمعيشة قانع

وهذه الحقيقة تتجلى بوضوح فى قوله :

وكل امرىء يوما سيعلم سعيه
اذا كشفت عند الاله المحاصل (١)

ولعلك ترى معى أن هذه المعانى التى تشيع فى تضاعيفها الآثار الاسلامية الروحية ، والتى تمثلت فى ايمان لبيد بالبعث والنشور والثواب والعقاب ، وبالموت والفناء ، هذه القيم مقتبسة من قول الله عز وجل : « وأن

---

(١) الديوان ص ١٦٨ وما بعدها ، ٢٥٧ .

مردنا الى اللـــه » و « والى الله تصير الامور » و « وكل شىء أحصـــيناه كتابا » و « يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور » و « يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » و « والامر يومئذ لله » و « يوم يأت لا تـــكلم نفس الا باذنه ، فمنهم شقى وســـعيد » و « أفلا يعلم اذا بعثر ما فى القبـــور ، وحصل ما فى الصدور » .

كذلك برز الأثر الاسلامى عند لبيد فى ايمانه الراسخ بأن الله علام الغيوب ، وفى ايمانه بالقدر وبالرسل ، كما فى قوله :

فـــلا تبعـــــدن ان المنيـــة موعـــــد
عليـــك فـــــدان للطلـــــوع وطالـــع

أعـــــاذل مـــا يـــدريك الا تظنيـــــا
اذا ارتحـــل الفتيـــان من هو راجـــع

تبكى على اثـر الشـــباب الذى مضـــى
الا ان أخـــــدان الشـــــباب الـــرعارع

اتجـزع ممـــا احدث الدهـــر بالفتى ؟
وأى كـــريم لـم تصـــبه القـــوارع ؟!

لعمرك مـا تـدرى الضـوارب بالحصـى
ولا زاجـرات الطيـــر ما اللــه صـــانع

ســـــلوهن ان كذبتمونى متـــى الفتـــى
يذوق المنـــايا ؟ أو متى الغيث واقـــع ؟

وقوله :

فقـــولا لـــه ان كـــان يقســـــم مالـــه
ألمـــا يعظك الدهـــــر ؟ أمـــك هابـــل

فتعلـــم أن لا أنت مـــدركٌ ما مضـــى
ولا أنت ممـــا تحـــذر النفس وائـــل

فان أنت لم تصـــدقك نفســـك فانتسب
لعلـــك تهـــديك القـــرون الأوائـــل

وقوله :

وانـــى لآتى مـــا اتيت واننـــى
لمـــا أفترقت نفسى على لراهب

وانـــك مـــا يعطيكه اللـــه تلقـــه
كفاحا وتجلبه اليـــك الجوالب

وقوله :

أتينـــاك يـــا خيـــر البريـــة كلهـــا
لترحمنـــا ممـــا لقينـــا مـــن الأزل

أتينـــاك والعـــذراء يـــدمى لبانهـــا
وقد ذهلت أم الصـــبى عن الطفـــل ...

وليـــس لنـــا الا اليـــك فـــرارنا
وأين يفر الناس الا الى الرســـل ؟! (١)

ايمان راسخ بأنه لا يعلم الغيب الا الله ، ومنه الأجـل متى ينقضى ؟ وأين يحل ؟ والرزق الذى يسعى الانســـان لتحصيله ، وما الانســان فى الواقع الا ســـاع لغاية « وفى السماء رزقكم وما توعدون » وما قول المنجمين الا ترهات

---

(١) الديوان ص ١٧١ ، ٢٥٥ ، ٣٤٩ ، ٢٧٧ .

وتخمين ، واب
بان محمـــدا
الســـلام . ،
من قول الله
عنـده علم ا
وما تدرى نف
تموت ان اللـ
الله لنا » و «

هذه القي
الاسلامى ، أث
المتمثلة فى د
فى شعره على
ورجـــاء ، خ
ورضوانه ، من
الشعر من جه

وهذه الظ
على صدق ما
وانه أعطى هد
وأنه لم يتوقف
المنطلق شاعر

أثر الاسلام الفكرى والانسانى

فى شعر لبيد

ارتقى الاسلام بالعقل الانسانى ، فخلصه من عقابيل الجاهلية وترهاتها وحماقاتها ، واحتكم اليه فى الوقوف على معرفة خالق الكون ومبدع نظامه ، ذلك بما دعاه اليه من التامل فى أقطار السموات والأرض « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » ، واحتكم اليه فى الدلالةعلى صحة البعث والنشور « قل يحييها الذى أنشاها أول مرة » .

ثم ان الذين لا يستغلون عقولهم فيما خلقت له من التامل والتدبر ، لتكون المعرفة المستبصرة ، وليكون الفهم والاقتناع ، ولايدركون أن الله الذى كرمهم بفضيلة العقل قد أودع هذه الفضيلة خواص تجعله قادرا على أن يسيطر على سائر مخلوقات الله ، هؤلاء قد أنحى عليهم القرآن الكريم باللائمة ، فهم الصم البكم العمى الذين لا يفقهون ولا يسمعون ولا يبصرون « ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » .

وشاعرنا لبيد فى ظلال الاسلام استغل عقله وشحذ فكره ، فنظر فى صفحة الكون ، وتدبر فى آلاء الله ، « انما يتذكر أولو الألباب » والذين يتدبرون ويتعمقون يخلصون الى نتائج عقلية تبهر الأسماع والنهى ، وشعر لبيد الاسلامى يحفل بالكثير من الدقائق العقلية والتأملات الفكرية ، التى تصل فى دقتها وبراعتها الى حد فلسفة أساطين الفلاسفة فى عصور الفلسفة ، وما ذلكم الا لأن لبيدا قد تأثر فى شعره بالقيم العقلية الاسلامية ، فاستخدم طاقاته الذهنية وأحاسيسه الوجدانية ، وشعره يفصح عن تأملاته وأحاسيسه ، من ذلك : انكاره عصيان الله ، وجحود الجاحدين للخالق العظيم ، ووصوله الى وحدانية الله من

خلال آياته الواضحة فى كل شىء خلقه ، وأن حركة الكون وسكونه شاهد صدق على قدرة مدبره ووحدانيته ، فى قوله :

فياعجبا كيف يعصى الالـ
ـه أم كيف يجحده الجاحد

وفى كل شىء له آية
تدل على أنه واحد

ولله فى كل تحريكة
وتسكينة أبدا شاهد (١)

واستشف عظمة الخالق فى خلقه الأضداد ، كما فى قوله :

والماء والنيران من آياته
فيهن موعظة لمن لم يجهل

ونظر في النجوم وتأمل تتابعها حين تبدو وحيث تغور ، فى قوله :

والنجوم التى تتابع بالليـ
ـل وفيها ذات اليمين ازورار

دائب مورها ، ويصرفها النو
ر كما تعطف الهجان الظؤار

---

(١) نسب الراغب الأصفهانى فى محاضرات الأدباء ١٧٠/٢ هذه الأبيات للبيد ، وورد البيت الثانى منها فى البحر المحيط غير منسوب، ولكونه لم ينسب ينصرف الى لبيد . وقد نسبها الجاحظ فى المحاسن والاضداد ص ١٢٠ لأبى نواس ، ونسبتها عندى للبيد ارجح ، لمشاكلتها طبعه ، وقوة ايمانه ، وعمق تامله . ولعل ابا نواس قد تمثل بها .

ثـم يعمـى اذا خفيـن علينـا
أطوال أمراسها أم قصـار ؟ (١)

وخاطب لبيد العقـل واللب معا فى فلسـفة رائعة ، توصل من خلال فكرة الثاقب الى أن حبـائل الموت مبثوثة حول الانسـان ، الذى لا ينبغى أن يظن أن عمله ينتهى وأن حوائجه تنقطع مادام حيا ، والمرء لن يحصل ما فات ، ولن ينجو مما هو آت ، وان كذب ، فليستنطق القرون ، فالعاقل من يبتغى عند الله الوسيلة بالطاعة والعمل الصالح ، فى قوله :

الا تسـالان المرء ماذا يحـاول ؟
انحب فيقضى أم ضـلال وباطل ؟

حبـائله مبثوثـة بسـبيله
ويفنى اذا ما أخطـأته الحبـائل

اذا المـرء اسـرى ليلـة ظن أنه
قضى عمـلا والمـرء ماعاش عامـل

فقـولا لـه ان كان يقسـم أمـره
الما يعظك الدهـر ؟! أمك هابـل

فتعلم ان لا أنت مـدرك ما مضى
ولا انت مما تحـذر النفس وائـل

فان انت لم تصدقك نفسك فانتسب
لعلك تهديك القرون الاوائل

فان لم تجـد من دون عـدنان باقيـا
ودون معـد فلتزعـك العـواذل

---

(١) الديوان ص ٢٧٢ ، ٤٤ .

أرى النـــاس لا يدرون ما قـــدر امرهم
بلى : كـل ذى لب الى اللـه واســل (١)

وهداه فكره الثاقب المتأثر بالقيم العقلية الاسلامية الى الايمان عن يقين وكتب بفناء ســائر المخلوقات - أناسى ولو كان ملوكا ، وجبالا ووحوشا - وان طال الابد ، وكأن لبيدا بذلك يقدم للانســان الدليل القــاطع على زهده فى الدنيا ، واقباله على الطاعات كما فى قوله :

لـو كـان شـــىء خالـدا لتــواءلت
عصـماء مؤلفة ضــواحى مأســل

أوذو زوائـــد لايطـــاف بأرضـــه
يغشـى المهجهج كالذنوب المرســل

فى نابـه عـــوج يجـــاوز شـــدقه
ويخــــالف الأعلـــى وراء الأســـفل

فأصـــابه ريب الزمان فأصـــبحت
أنيـــابه مثـل الــزجاج النصـــل

ولقـد جرى لبـــد فادرك جريـــه
ريب الـزمان وكـان غيـر مثقـل

لمـا رأى لبـد النســور تطـايرت
رفـــع القوادم كالفقيـــر الأعــزل

من تحتـه لقمـــان يرجـــو نهضـه
ولقـــد راى لقمـــان أن لا يأتلـى

غلب الليـــالى خلف آل محـــرق
وكمـــا فعلن بتبــع وبهــر قـــل

---

(١) الديوان ص ٢٥٤ وما بعدها .

وغلبن ابرهـــة الـــذى الفينـــه
قـد كان خلـد فوق غرفـــة موكـل

والحـــارث الحـراب خلى عاقـــلا
دارا أقـــام بهـــا ولـــم يتنقـــل

تجـــرى خزائنــه على من نابـــه
مجرى الفرات على فراض الجـدول

حتـــى تحمـــل أهلـــه وقطينـــه
واقـــام ســـيدهم ولـــم يتحمـــل

والشـــاعرون النـاطقون أراهـــم
سلكوا ســـبيل مرقش ومهلهل (١)

ونظر فاذا الانسان حديث لمن بعده ، واذا الانســـان كان لم يكن شيئا مذكورا ، فى قوله :

فبادوا فما أمسى على الأرض منهم
لعمـــرك الا أن يخبـــر ســـائل

كأن لم يكن بالشـــرع منهم طلائـــع
فلم ترع ســـحا فى الربيع القنابل ...

وأمس كأحـــلام النيـــام نعيمهم
وأى نعيـــم خلتـــه لا يزايـــل ؟!!

وتأمل فاذا كل جديد يرجـع الى بلى ، واذا الدهـــر لا يغلب ، واذا الليل والنهار يتعـــاقبان قويين ، بينمـــا يضعف الانسان ويهزل ، فى قوله :

(١) الديوان ص ٢٧٢ وما بعدها .

وابوك بسر لا يفند عمره
والى بلى ما يرجعن جديد .

غلب العزاء وكنت غير مغلب
دهر طويل دائم ممدود

يوم اذا يأتى على وليلة
وكلاهما بعد المضاء يعود

واراه يأتى مثل يوم لقيته
لم ينصرم وضعفت وهو شديد

ويسبر أغوار النفس والمجتمع ليصل الى : أن العتاب المجدى هو المنبعث من ضمير الحر ونفس الكريم اللوامة ، وأن الانسان يتأثر بخليله فى الصلاح والغواية ، فى قوله :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

ولعلك لاحظت معى أثر الاسلام فى هذه القيم الفكرية ، وأن جانبا عظيما منها قد استمده لبيد من القرآن الكريم أو الحديث الشريف ، كقول الله عز وجل :

« لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا »

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم « كفى بالموت واعظا » و « لا تقل لو كان كذا لكان كذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان » وقول الله تعالى : « ولا أقسم بالنفس اللوامة » وقول الرسول صلى الله عليه وسلم « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير » .

وهذا الاقتباس انما يدل دلالة قاطعة على تأثر لبيد بقيم الاسلام العقلية ، وعلى انه صدع لأمر الله فى التدبر فى كونه وآلائه .

وفى شعر لبيد الاسلامى - الى جانب هذه القيم - قيم أخرى انسانية ، تأتى من تأثره بالقيم الاسلامية الانسانية ، وتتضح لنا هذه القيم فى : الوفاء والمروءة ، سواء فى وفائه للذاهبين الماضين ، أم فى وفائه للأصدقاء ، كما فى قوله :

ان الرزية لا رزية مثلها
فقدان كل أخ كضوء الكوكب

ذهب الذين يعاش فى اكنافهم
وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

يتاكلون مغالة وخيانة
ويعاب قائلهم وان لم يشغب ...

من معشر سنت لهم آباؤهم
والعز قد يأتى بغير تطلب

فبرى عظامى بعد لحمى فقدهم
والدهر أن عاتبت ليس بمعتب

وقوله فى أربد أخيه لأمه :

لن تفنيا خيرات أر
بد فابكيا حتى يعودا

قولا هو البطل المحا
مى حين يكسون الحديدا (١)

---

(١) الديوان ص ٢٦٥ ، ٣٥ وما بعدها ، ٣٤٩ ، ١٥٧ ، ١٦٣ .

وهو هنا قد جرد من نفسه شخصين فخاطبهما ، وقوله هذا لا يحمل على المن ، وانمـا هو اسـتثارة للبكاء على أربد ذى الخيرات ، الذى ينبغى بـكاؤه حتى يوم الدين وبعث الناس من قبورهم ، وهذا انما يدل على وفائه لمن رحل عن الدنيا ، ومثله قوله فى أربد أيضا :

اذا اقتصـدوا فمقتصـد أريب
وان جـاروا سـواء الحـق جـارا

ويهـدى القـوم مضـطلعا ، اذا ما
رئيس القـوم بالمومـاة حـارا

وقوله :

فتى كـان اما كل شـىء سـألته
فيعطى ، وأمـا كل ذنب فيغفـر

فان يـك نوء من سـحاب أصـابه
فقـد كان يعلو فى اللقـاء ويظفر

وقوله فى الذاهبين من قومه وبنى أبيه :

ابنـى هـل احسست أعـ
ـمامى بنى أم البنينـا ؟

وأبـى الـذى كـان الأرا
مل فى الشـتاء له قطينـا ؟

وأبـو شـريح (١) والمحـا
مى فى المضـيق اذا القينـا

---

(١) أبو شريح : هو الأحوص بن عمرو ، وشريح ابنه أحد من سـاد من بنى جعفر ، وقد رفع « أبو » بعد النصب فى البيتين السابقين والتقدير « وأبو شريح هل احسسته ؟ » ويروى : « وأبا شريك » .



فاما تريني اليوم عندك سالما
فلست بأحيا من كلاب وجعفر (١)

فلبيد كريم ، حلو الشمائل ، مثقوب الكف ، وان جهدت فى لومه اللائمة ، لأنه على يقين من أن المال وان كثر لن يغنيه عن الموت فتيلا ، وان العرض أولى بالصيانة من المال ، والذين يطلبون الحمد ، ويبتغون حسن الثناء ، وذيوع الصيت ، يشترون ذلك بتلاد المال وطارفه ، والكرم ، وتتبع فعال الصالحين ، فالانسان لا يخلد الا بخلود ذكره ، ويمثل هذه القيم أيضا قوله :

ذرني وما ملكت يميـ
ـني ان رفعت به شئونا

وافعل بمالك ما بدا
لك ان معانا أو معينا

وكثرة اللائمين من حوله تدل على أنه كان فياضا سخيا ، يداه غمامة ، وأن فواضله ما تغب على طالبى نواله ومعروفه .

رعاية الجار والحرص عليه : تلوح هذه القيمة الانسانية فى شعر لبيد بوضوح ، وتدل على مروءته ونبل خلقه ودماثة طبعه ، وعلى تأثره بالاسلام فى حثه المتكرر على الحفاظ على الجار ومراعاة حقوقه ، من ذلك قول لبيد يخاطب عاذلته ويدعوها الى التدبر ، فعذلها لن يثنيه عما هو ماض فيه ، من فلج الخصم ، والكرم ، ورعاية الجارة التى تحمد صنيعه معها ، واجابة غلام جارته الى طلبه ، واتباع الجارة المعروف والخير اذا امتنعت عن الطلب ، أو ارتحلت ، وازدياد الفيض والعطاء فى ليالى الشتاء ، وهذا غاية الكرم فان شدة العرب وبؤسهم فى الشتاء لعدم النبات : يقول :

---

(١) الديوان ص ١٦٧ ، ٣٢٣ ، ٢١٤ ، ٤٦ وما بعدها .

اعقلـــى ان كـــنت لـــا تعقلـــى
ولقـــد أفلـــح من كـــان عقـــل

ان تـرى راسـى امســى واضـحا
ســلط الشـيب عليـــه فاشـــتعل

فلقـــد اعـــوص بالخصـــم وقـــد
امـلأ الجفنـــة مـــن شـــحم القـلل

ولقـــد تحمـــد لـــا فـــارقت
جارتى ، والحمـــد من خير خـــول

وغــــلام ارســــلته أمـــه
بالـــوك فبذلنـــا مـــا ســـال

أو نهتـــه فاتـــاه رزقـــه
فاشـــتوى ليلـــة ريـــح واحتمـــل

مـــن شـــواء ليـس مـــن عارضـــة
بيـــدى كـل هضـــوم ذى نـــزل

ولبيد فى عطائه جواد كريم ، يعطى فى سخاء ، ويبذل مما يحب ويشتهى ، امتثالا لقول الله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ومن ذلك قوله :

وجـــارته اذا حلـــت اليـــه
لهـــا نفـــل وحظ فى الســـنام

فان تقعـد فمـكرمة حصـــان
وان تظعن فمحســـنة الـــكلام

ومنه ما جاء فى وصيته لأبى حنيف :

واقعل بمـالك مـا بـدا
لـك ان معـانا أو معينـا

واعفف عـن الجـارات وامـ
ـنحهن ميسـرك السـمينا

وابـذل سـوام القـدران
سـواء هـا دهمـا وجـونا

ذا القـدر ان نضجت وعجـ
ـل قبلـه مـا يشـتوينا

ان القـدور لواقـح
يحلبن اكثـر مارغينـا (١)

أنه يشترى حسن الثناء والحمد بالكرم الفيـاض ، ومن هنا جعل للقدور ضروعا تدر ، فهن يحلبن من الحمد والذكر والشرف أكثر مما يطعم فيهن .

الخوف على بنتيه من الحزن والجزع عليه : فى هـذه الزواية الانسانية ينبلج الاحساس النبيل ، والشعور الأبوى الدفاق ، ويصور لنا لبيدا مسلما رحيما بفلذتيه ، متوجسا خيفة من حزنهما ، وانعطـاف الرجل نحو بنـاته ما كان ليظهر سافرا هكذا فى مجتمع يدس بنـاته فى التراب ، ويتوارى الرجل من القوم خزيا اذا بشر به ، الا انه الاسلام بمبادئه التى غرسها فى قلوب أتباعه ، وقيمه التى نماها فى أفئـدة معتنقيه ، ومنهم لبيد الذى صور هذه المشـاعر النبيلة فى قوله :

تمنى ابنتـاى أن يعيش أبوهمـا
وهل أنا الا من ربيعـة أو مضر ؟!

ونائحتـان تنـد بان بعـاقل
أخـا ثقـة لاعين منـه ولا أثـر

(١) الديوان ص ٣٢٤ ، ١٧٧ وما بعدها ، ٢٠٤ ، ٣٢٤ .

وفى ابنى نزار أسوة ان جزعتمـــا
وان تســالاهم تخبرا فيهم الخبـــر

فهو هنا يخشى جزعهما وفجيعتهما فيه ، وجزعهمـــا يؤلمه ويمضه ، ولهذا شرع يسرى عنهمـــا ، ويذكرهما بان الموت مصير كل حى ، ومن منطلق خوف الأب الحانى على بنتيه من اتيان المبالغة فى مظاهر الحزن على جمالهمـــا ، راح يرسم لهما طريقا ينبع من قيم الاسلام وروحه :

فان حان يـــوما أن يموت أبوكمـــا
فلا تخمشـــا وجها ولا تحلقا شـــعر

وهذا الاحساس بدا لنا أيضا فى قوله :

فـــى ربــــرب كنعـــاج صـــا
رة يبتئسن بمـــا لقينـــا

متســــلبات فـــى مســـو
ح الشـــعر أبـــكارا وعـــونا

وحـذرت بعـد المـــوت يــو
م تشـين أســـماء الجبينـــا (١)

وقد الحف لبيد المسلم فى تقرير هـــذا المفهوم لدى بنتيه : بسرة وأسماء ، ثم وقف باسماء ، تكشف عن خوفه وايمانه وثقته فيما عند الله ، وبدهى أن بسرة مقصـــودة بالنصيحة أيضا ، فى قوله :

يا أسم صـــبرا على ما كان من حـــدث
ان الحـــــوادث ملقـــــى ومنتظـــــر

(١) الديوان ص ٢١٣ ، ٣٢٦ .

صـــبرا على حـدثان الدهـــر وانقبضى
عـــن الــدناءة ان الحـــر يصـــطبر

فمـــا رزقـــت فـــان اللـــه جالبــــه
ومـــا حرمت فمـــا يجرى بــه القـدر (١)

هذه القيم الانسانية تدل دلالة قاطعة على تأثر لبيـد بالقيم الانسانية فى الاســـلام ، البارزة فى القرآن الكريم وفى أحاديث الرســول صلى الله عليه وســـلم وهذه القيم الروحية والفكرية والانسانية فى تأثرها بالاســلام وقيمة ، وتفجرها من ينابيعه لتؤكد على أن لبيدا شاعر مخضرم ، وأن خاطره ما أجبل عن الشعر فى الاسلام .

ولا ينفى هذه الحقيقة وجود بعض هذه المعـــانى فى شعر الجاهليين ، كالمعانى الانســانية مثلا ، لأنهـــا معان عامة شائعة ، وتراث قديم مشترك ، أقره الاســـلام وأبقى عليه ، وأثنى على معتنقى هذه القيم ، ووعدهم بالمثوبة ، ونفر من النــــكوص عنها ، وأوعـــد من حاد عن جـادة الصواب .

وهذا هو الجديد فى عالم هـــذه المفاهيم ، والمتأمل يتراءى له عن كثب أن لبيدا انما تناولها فى ضوء هـــذا المعيار .

وليس من المعقول فى شىء أن تتفق هـــذه القيـــم والمعانى الروحية والفـــكرية والانســانية ، فى الايمـــان بالخـالق ووحدانيته ، وبالرســـل ، والبعث والحســـاب والثواب والعقاب ، وما الى ذلك ، أن تتفق لأعرابى مثل لبيد ما لم يكن قرأ أو استمع ممعنا الى آى الذكر الحـكيم التى تقرر فى جلاء ووضوح هذه القيم .

---

(١) انظر الديوان ص ٣٦٤ .

ولا ريب فانه فى مقدور الانســان الحافظ لكتاب الله أن يردد فى معنى كل شطر للبيد ـ ذكرناه سلفا ـ آية أو أكثر من كتاب الله عز وجل ، مما يؤكد على أن لبيدا قــد تلا هذه الآيات ، وتعمق معانيها ، ثم قال شعرا تمثل فيــه معانى هذه الآيات .

ومن ثم فان شيوع هذه القيم الاســلامية فى شــعر لبيد ، انما هى أقباس من تعاليم الاسلام ، واقتبــاس من دستوره الخالد .

وأثر القرآن الكريم والاسلام واضح فى شــعر لبيد ، ولا غرابة !!

فمن غير المألوف ان يطرق لبيــد أبواب هــذه القيم الاسلامية مجتمعة وأن يلج أفنيتها مصادفة .

* * *

أثر الاسلام فى الفاظ وأساليب

شعر لبيد

اذا كان ثمت قدر مشترك بين بعض المعانى — التى تحدثنا عنها آنفا — فى الاسلام والجاهلية ، فان هذا القدر ينمحى فى الالفاظ ويتلاشى ٠

والالفاظ — بلاريب — أهم ما يميز الشعر الاسلامى ، اذ أن الاسلام كان قد أخرس أصوات بعض الالفاظ بمدلولاتها فى الجاهلية ، وأقام على أنقاضها الفاظا فياضة بالروح الاسلامية ، كذلك أوجد الاسلام الفاظا لم تكن مذكورة ، كلفظة « الجاهلية » للزمن الذى كان قبل البعثة النبوية ، ولفظة « المنافق » لمن دخل الاسلام بلسانه دون قلبه ، ونقل الاسلام بعض الالفاظ من معانيها اللغوية الى معان اصطلاحية شرعية ، كالفاظ « المسلم والمؤمن والكافر » ٠

ومن هنا فان الفاظا تدل على المعانى الدينية ، وتوحى بالقيم الاسلامية فى ضوء الدين الجديد قد حلت محل الفاظ جاهلية ، كما صفى الفاظا أخرى وأقالها من عقالها الذى كانت ترسف فيه فى الجاهلية ، وخلع عليها مدلولا اسلاميا رقيقا مهذبا ، وشعر لبيد تشيع فى تضاعيفه الفاظ اسلامية كثيرة ، ولقد اتسمت الفاظ شعره فى الفترة التى قضاها فى ظلال الاسلام بسمات ميزته عن الفاظ شعره فى الجاهلية ، وأهمها :

١ — شيوع الالفاظ الاسلامية فى تضاعيفه : فالناظر فى شعر لبيد هذا تتراءى له ألفاظ اسلامية ، تمثل العقيدة وروحها ، وتشف عن المثل والقيم ، وتكشف عن المعانى التى أوجدتها الحياة الاسلامية ، وتبرز تأثر الشاعر

بالقرآن الكريم فى الفاظه وأساليبه ، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، من هذه الالفاظ : « الاسلام والتقوى والغفار والحمد لله والسلام والمغفرة والرحمة والصلاح والفلاح والرسل والأبرار » على شاكلة قوله :

الحمد لله اذ لم يأتنى أجلى
حتى لبست من الاسلام سربالا

وقوله :

حمدت الله والله الحميد
ولله المؤثل والعديد

وقوله :

انما يحفظ التقى الأبرار
والى الله يستقر القرار

كل شىء أحصى كتابا وعلما
ولديه تجلت الأسرار ...

يوم لا يدخل المدارس فى الرحـ
ـمة الا براءة واعتذار

وحسان أعدهن لأشها
د وغفر الذى هو الغفار ...

فعلى عامر سلام وحمد
حيث حلوا من البلاد وساروا

وقوله :

وكم مشتر من ماله حسن صيته
لأيامه فى كل مبدى ومحضر

ابـاهى به الاكفـــاء فى كـل موطن
واقضى فروض الصـالحين واقترى

وقوله :

ومـا البـــر الا مضـمرات من التقى
ومـا المـــال الا معمرات ودائـــع

ومـا المـــال والاهلون الا وديعـــة
ولابد يـوما أن ترد الودائـــع (١)

وقوله :

ونحن لنـــا الا اليـــك فـــرارنا
وأين يفر الناس الا الى الرسل ؟!!

فلا تدع بالسقيا وبالعفو ترسل السـ
ـماء لنا والأمر يبقى على الأصل (٢)

هذه النمـاذج وغيرها تشـيع فى تضـاعيفها الألفاظ الاسلامية ، وقد ســـاوقت المعـــانى التى تكشف عن القيم الاسلامية النبيلة ، والتى تواكب المثل الانسانية الرفيعة .

ويبدو أن لبيدا قد تأثر بالقرآن الـــكريم والحديث الشريف ، والا ما جاءت هذه الثروة اللفظية الاسلامية فى شعره بهذا الكم وبهذه الصـورة ، فالانســـان الذى يحفظ كتاب الله يستطيع أن يتلو فى كل معنى تناوله الشـــاعر

---

(١) الـــديوان ٢٥٨ ، ٣٨ ، ٤١ وما بعـــدها ، ٤٧ ، ١٦٩ وما بعدها .

(٢) الديوان ٢٧٧ .

آية أو أكثر من كتاب الله ، ولا يتسنى للبيد الأعرابى أن يقف على هذه الألفاظ والمعانى الاسلامية الا اذا كان قد قرأ وفهم وتعمق الآيات القرآنية التى استقى منها الفاظه ومعانيه ، ثم قال شعرا فى معانيها . وان شيوع الألفاظ الاسلامية فى شعر لبيد ليدل دلالة قاطعة على صلة الشاعر الوثيقة بالاسلام ومنابعه .

٢ — اقتباس النهج القرآنى فى استعمال بعض الألفاظ :

رأينا لبيدا فى شعره الاسلامى يقتفى نهج القرآن فى استعمال بعض الألفاظ ، من ذلك استعماله كلمة « يعفو » بمعنى « يكثر » كما استعملها القرآن الكريم ، فى قول الله عز وجل فى سورة الأعراف الآية ٩٥ : « ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا » أى كثروا ، قال لبيد :

يعفو على الجهد والسؤال كما
أنزل صوب الربيع ذى الرصد

واستعماله كلمة « المصانع » كما استعملها القرآن الكريم ، بمعنى القصور المشيدة المحكمة ، فى قول الله تعالى فى سورة الشعراء الآية ١٢٨ ، ١٢٩ : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » قال لبيد :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع
وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

واقتفاؤه نهج القرآن الكريم فى استعمال كلمة « المسحر » بمعنى المعلل ، فى قول الله تبارك وتعالى فى سورة الشعراء الآية ١٨٥ : « قالوا انما أنت من المسحرين » فقال لبيد :

فـان تسـالينا فيـم نحـن فاننـا
عصافير من هذا الانام المسحر (١)

الى غير هـذه من النماذج التى ينبىء عنها ديوانه ، والتى تؤكد على صلة الشاعر الوثيقة بالدستور الاسلامى ، وعلى أثر الاسلام فى شعره ٠

٣ ـ رقة الالفاظ وعذوبتها وحلاوتها :

لقد رقت الفاظ شـعر لبيد فى هـذه الآونة ، وعذبت كلماته ورقت حواشـيها ، وانتقلت بسـبب الاسـلام من الحوشية والغرابة الى الرقة والعذوبة ، فبعد أن كانت لغة شعره الجاهلى ـ كما يصفها أبو عمرو بن العلاء بانهـا ـ « رحى برز » (٢) ٠ يريد أن شـعره خشن لا يحسن فى السمع ، ولا يعذب فى الأذن ، أصبح كما يصفه ابن سـلام « كان عـذب المنطق رقيق حواشى الـكلام » وهى رقـة يلاحظها من يتعرض لشعر لبيد الاسلامى ، اذ يتقرر لديه أن لبيدا قـد تخلص من جفاء البيئة البدوية وخشـونتها ووعورة الفاظها ، فتهذبت الفاظه وعذبت أساليبه ، فرقت حواشى شعره ، وحلا فى السمع ٠

ورقة الفاظه وعذوبتها وحلاوتها فى الغـالب ما تاتى ممزوجة بالمشـاعر الانسـانية النبيلة والاحاسيس الرفيعة الرقيقة ، مما يكسب الفاظه ومعانيه قوة التـأثير وعظمة الهيمنة على السامع أو القارىء المتذوقين ، وكان شعره فى ظلال الاسلام قد انساب من نبع رقراق ، ، استمد ماءه من عيون الاسـلام الذى يمج التقعر ويـكره التكلف ويـذم التفيهق ، من ذلك قوله :

---

(١) الديوان ١٥٩ ، ١٦٨ ، ٥٦ ٠
(٢) الموشح ص ٧١ ٠

ولقد سئمت من الحيـاة وطولهـا
وسـؤال هـذا النـاس كيف لبيد ؟

غلب العـزاء وكنت غيـر مغلب
دهـر طويـل دائـم ممـدود

يـوم اذا يأتـى علـى وليلـة
وكلاهمـا بعـد المضـاء يعـود

واراه يأتـى مثـل يـوم لقيتـه
لم ينصـرم وضـعفت وهو يزيـد

اكـرمت عرضى أن ينـال بنجـوة
ان البـرىء من الهنـات سـعيد

ومنه قوله :

طـرب الفـؤاد وليتـه لم يطـرب
وعنـاه ذكـرى خلـة لـم تصـقب

سـفها ولـو انى أطعت عواذلى
فيمـا يشـرن به بسـفح المذنب

لزجـرت قلبـا لا يريـع لزاجـر
ان الغـوى اذا نهـى لـم يعتب

فتعـز عن هـذا وقـل فى غيـره
واذكر شمائل من اخيك المنجب (١)

فالفاظه – كما ترى – سهلة جزلة رقيقة عذبة ، ومعانيه

---

(١) الديوان ص ٣٤ وما بعدها ، ١٥٦ وما بعدها .

ممتعة خصبة ، تصور فى النموذج الاول عقلا مفكرا ، ونفسا جياشة بالمشاعر قد استقبلت الزمان ناظرة فيه ، تقارن مقبله بمدبره ، حتى أخذت من ذلك بحظها ، ثم احتملت الحياة فى شجاعة وصبر وجلد ، غير أنها سئمت الحياة ، وضاقت بسؤال الناس ، فاعلنت هذا الشعور بالسأم القابع فى أعماق النفس .

وعلى الرغم من أن النموذج الثانى يصور شعرا أرهقه الحزن ، وعناه الألم ، فان الرقة والعذوبة تنسابان فى تضاعيف أبياته ، وكأن الحزن والألم قد تضافرا ، فأرهفاه وصفياه ورققاه .

ان أثر الاسلام فى مثل هذه الأمثلة واضح ، وانى لأعرابى كلبيد بكل هذه الرقة والعذوبة والحلاوة ، ما لم يكن قد قرأ القرآن الكريم فى وعى وتدبر ؟!!

غير أن لبيدا لم تعزب عنه الرقة اللفظية الا حين يتحدث عن غابره فى الجاهلية ، أو عن شىء فى البادية ، فيعنف لفظه بعض العنف ، ويجفو بعض الجفاء ، كما فى قوله :

وحميت قومى اذ دعتنى عامر
وتقدمت يوم الغبيط وفود

وتداكات أركان كل قبيلة
وفوارس الملك الهمام تذود

اكرمت عرضى أن ينال بنجوة
ان البرىء من الهنات سعيد (١)

فعبارة « تداكات » الواردة فى افتخاره بيوم الغبيط

---

(١) الديوان ص ٣٧

غريبة جافية ثقيلة ، لتقارب مخارج حروفها ، وتكرار التاء والهمزة ، وهى بمعنى « ازدحمت » يقال : مالكم تداكأون علينا مذ اليوم ، كأنه يجىء بعضهم فى أثر بعض ، وهذا المعنى لا يتيسر الا بالرجوع الى المعاجم اللغوية ، ثم ان جفاءها وعدم صلاحيتها للانسياب الشعرى أو الموسيقى لا تبرح قابعة فى حروفها المتنافرة حتى بعد الكشف عن معناها ، وهذا دليل الصدق فى التجربة الشعورية ٠

غير أن الشاعر سريعا ما يعود الى رقته المعودة له فى شعره الاسلامى ، كما يبدو لك فى البيت الثالث ٠ وهذا بلاريب اثرمن آثار الاسلام فى شعره ٠

٤ — اقتفاء الأسلوب القرآنى :

لم تقف افادة لبيد من القرآن الكريم عند حد صياغة المعانى الاسلامية ، ومعانى الآيات القرآنية فى شعره ، وانما ضم اليها :

(أ) الافادة من أسلوب القرآن الكريم وبلاغته ونصاعة ديباجته ، فتراه قد نظر فى قول الله عز وجل فى سورة مريم الآية ٤ : « قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا » فصاغ هذا الأسلوب المجازى فى قوله :

ان ترى رأسى أمسى واضحا
سلط الشيب عليه فاشتعل (١)

ونظر فى قول الله تبارك وتعالى فى سورة البقرة الآية ٢٦٥ : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت

(١) الديوان ١٧٧ ٠

إكليها ضعيفين » فقال لبيد مكنيا عن كثرة قومه بنى جعفر :

ولقد ارانى تارة فى جعفر
فى مثل غيث الوابل المتحلب (١)

(ب) الصدق والوضوح ومجانبة التعقيد والبعد عن المبالغة والغلو :

وهذا الأثر واضح فى شعر الرجل الاسلامى كل الوضوح حتى فى الصور التى ينتزعها من البيئة ، على شاكلة قوله :

أصبحت أمشى بعد سلمى بن مالك
وبعد أبى قيس وعروة كالاجب

يضج اذا ظل الغراب دنا له
حذارا على باقى السناسن والعصب (٢)

فهو هنا يعبر عن عاطفة جد صادقة فى رثاء قومه الذين يحبهم ، وقد تركوا فى نفسه احساسا بالألم والوحدة ، ويعبر بصدق ووضوح عن مشهد واقعى رآه وتأثر به ، مشهد الجمل الذى قطع سنامه حين الجدب والقحط ، فهو يرتعد خوفا وألما اذا أحس غرابا دنا له ، أو توهم دنوه ، لما يفعله من النقر ببقايا سنامه واعصابه وفقار ظهره ، فالصورة مؤثرة وصادقة ، وقد استطاع لبيد أن يجمع بين الصدق الفنى والواقعى على السواء ، وتأمل صدقه ووضوحه حين يصور الموت يسوق الناس نحو الهلاك براعى ابل يزجر المتخلف من ابله ، يسوقها نحو القطيع فى قوله :

---

(١) الديوان ١٥٧ .
(٢) الديوان ص ١ .

ويمضـــــون أرســالا ونخلف بعدهم
كما ضـم أخـرى التاليات المشــايع

ولبيد حتى حين يلجأ الى الكناية لا يدير للصـــــدق ظهره ، على نحو قوله الذى يكنى فيه عن الموت باصفرار الأنامل :

وكل أناس ســـوف تدخـــل بينهم
دويهية تصـــفر منهــا الانامل

يقول الطوسى فى شرح الديوان : « ان المرء اذا مات اصفرت انامله ، واسودت أظافره » .

(جـ) التأثر باســـلوب القرآن العقلى فى الاحتجاج ، بدلا من أسلوب اللجاج ، كما فى قول لبيد :

تلوم على الاهــلاك فى غير ضـــلة
وهل لى ما أمســكت ان كنت باخلا

رأيت التقى والحمـــد خير تجــارة
رباحا اذا ما المـــرء أصـــبح ثاقلا

وهــل هــو الا ما ابتنى فى حياته
اذا قذفوا فـــوق الضريح الجنــادلا
وأثنوا عليـــه بالـــذى كــان عنـــده
وعض عليه العــائدات الأناملا (١) ؟

والأسلوب العقلى فى احتجاج لبيد على لائمته واضـــح فى هذا النموذج ، وضوح ما فيه من التهكم والسخرية من دعوى اللائمة على الانفاق والتخرق فى الكرم .

---

(١) الديوان ١٧٠ ، ٢٥٦ ، ٢٤٦ وما بعدها ، ٢٥٤ وما بعدها .

(د) عدم الجـرى فى فلك الأســاليب التقليـدية المعهودة : فقد أفصح شعر لبيد الاسلامى عن ظاهرة تلوين الشاعر شـعره بأسلوب الحوار والقصص ، وفيهما اذكاء لعقل المخاطب ووجدانه معـا ، وبذلك يقبل المخاطب عليه بكل جوارحه وأحاسيسه ، لأنه طرف فى الحوار ، ولبيـد متأثر فى ذلك بقول الله تعالى : « وشـاورهم فى الأمر » ونلحظ هذه الظاهرة فى قول لبيد ـ على سبيل المثال ـ :

الا تسـألان المـرء مـاذا يحـاول
أنحب فيقضى أم ضـلال وباطل ؟! ...

فقولا لـه ان كان يقسم أمـره
ألمـا يعظك الدهـر أمـك هابـل !!

فتعلـم أن لا أنت مدرك مـا مضـى
ولا أنت ممـا تحـذر النفـس وائـل

فان أنت لم تصـدقك نفسـك فانتسب
لعـلك تهـديك القـرون الأوائـل

فان لم تجـد من دون عـدنان باقيـا
ودون معـد فلتـزعك العـواذل

ولا شك أن هذا الأسـلوب يجعل لموعظته صـدى فى نفس مخاطبه ، بعد أن اسـتحوذ على عقله ولبه فى الوقت ذاته .

ويتجلى فى شعر لبيد الإسلامى الى جانب أسـلوب الحوار الأسلوب القصصى ، فالفكرة عند لبيد فى كثير من الأحيان تبدأ ببداية قصصية وتنتهى بنهايتها ، ولم يغفـل لبيد ذيوع هذه الظاهرة فى شـعره ، التى واتته من طول عمره ، وكثرة تجاريبه ، وثقوب نظره ، فقال :

اخبر أخبـــار القـرون التى مضت
ادب كانـــى كلمـا قمت راكـــع

ومن ثم فقد قص علينـــا قصص الغساسنة فى جلق ، وصبح العادى ـ الذى قيل : انه أحـد ملوك الحبشة ، وان الأسد بقر بطنه وهو حى فرأى سواد كبده ـ وقصة ابرهة وحادثة الفيل ، وقصة لقمـــان ونسره لبـد ، ليخلص الى العبرة والتذكير ، وهو حين يروى قصة يظل ذهن القارىء أو المخاطب مرتبطا بهـــا ، متتبعـــا لأحداثها ، مترقبـا لنهايتها .

والحبكة القصصية عند لبيد مكتملة الجوانب ، تقـوم على التماســك والترابط ، فلكل لفظـــة مغزى فى الالمام بجزء معين من القصة ، على شاكلة قوله :

وغســان ذلت يـــوم جلـــق ذلـــة
بســـيدها والأريحى المنـــازل

رعى خرزات الملك عشـرين حجـــة
وعشرين حتى فاد والشيب شـامل

وامسى كاحـــلام النيـــام نعيمهـم
وأى نعيم خلته لا يزايـــل ؟!! (١)

والذى يلفت النظر أن قصص لبيد فى شـــعره الجاهلى كانت تدور حـــول الحيوان غالبا ، كقصـــة هـذه البقرة الوحشـــية التى تبحث عن وليـــدها ، فلم تهتد اليـــه ، فافترسته السباع فى نهاية مؤلمة ، فى قوله :

وقنـــاة تبغى بحربـــة عهـــدا
من ضبوح قفى عليه الخيـــال

---

(١) الديوان ١٧١ ، ٢٦٦ .

الى قوله :

ثم لاقت بصـــيرة بعـــد ياس
واهابا فى بعضه أوصال (١)

أما فى شعره الاسلامى فقصصـــه تدور حول الماضين من ذوى البـــأس والقوة والجبروت لينتهى الى الموعظة والاعتبار والتدبر بما آلوا اليه ، ولا ريب أن لبيدا فى هذا الاتجاه متأثر بأسلوب القرآن الكريم فى قصصه .

وان حوادث قصص لبيد ممتعة ، تجرى وفق نســق مترابط متلاحم ، وان البيت فيها لاينهض بنفسه ، وانمــا ينهض الى جانب مجموع أبيات القصة .

وبعد : فان أســلوب لبيد فى شعره الاســلامى تام الصياغة ، بالغ الجودة ، شديد الأسر ، محكم النسج ، متين العبارة ، يمتــاز بالرقة والعذوبة والسلاســة والبعد عن التعقيد والغرابة والوعورة ـ التى ظهرت فى شعر الرجل الجـاهلى ـ وتلوح هذه الســمات اللفظية والأســلوبية بخاصة حين يعبر الشاعر عن خوالج نفسه أو يتفكر فى الحياة وأحوال النــاس ، ولك أن تقول ذلك فى شـــعره الذاتى بعامة ، الذى لم يخضع فيه لأثر البيئة أو طبيعة الموضوع، فلغة العواطف الانســانية لا تتغير ، الى جانب ما حرص عليه لبيـــد من ملاءمة ألفاظه لمعــانيه ، التى تبرز القيم الانسانية والمثل الرفيعة ، مدثرة بدثار الأساليب البيانية الموحية ، والمعبرة فى صـــدق ووضـــوح ، والبعيدة عن الاغراق والغلو ، وشطط الخيال ، والتفيهق والمعاظلة .

* * *

---

(١) الديوان ص ٢٧٠ .

أثر الاســـلام

فى البنــاء الفنى

سار الشعراء الجاهليون فى بناء قصائدهم وفق نظام مرسوم لم يتخطوه ، حيث يستهلون القصـــيدة فى الغالب بالوقوف على الأطـــلال والدمن ، والبـــكاء على الديار والآثار ، والتغزل بالأحباب ووصف الرواحل التى يقطعون على ظهورها المفاوز ، لينتقلوا بعد هـــذه الرحلـــة الى غرضهم الرئيسى من مدح أو هجـــاء أو عتاب أو اعتذار ، وكان هـــذا التقليد الفنى مرعيا عندهم ، والخروج عليه يعد شذوذا ، وشاعرنا لبيد فى جاهليته لم يخرج على هذا النمط ، فقد رأيناه يذكر الديار ويقف عليها ويسائلها على نحو قوله :

الـــم تلمم على الـــدمن الخـــوالى
لســـــلمى بالمـــذانب فالقفـــــال

وقوله :

عفت الـــديار محلهـــا فمقامهـــا
بمنـــى تابـــد غولهـــا فرجامهـــا

ولكنه فى ظلال الاســـلام الذى أخذت القصـــيدة فى أحضانه طريقها الى الغرض المقصود مباشرة ، يتاثر بهذه الروح الفنية الجديدة ، ويبنى فنه فى ضوئها ، ويتضـــح لنا ذلك فى :

١ – المطالع : يلوح لدارس شعر لبيد الاســـلامى أنه ضرب صفحا عن المطالع الجاهلية التقليدية ، وأنه قلب لها ظهر المجن ، لتحل محلها مطالع اسلامية بحتة ، أو متاثرة

بالروح الفنية الاسلامية ، التى تعمد الى الغرض ، دون لف أو نشر ، وهى لذلك تتفاوت بين الدين والقيم الاسلامية ، والحكمة والرثاء ، وعتاب المراة التى تلومه على كرمه وتخرقه .

فأما الدين وتسبيح الله وحمده وتوحيده وتقوى الله، ، فقد كثر فى كثير من مطالع شعره الاسلامى ، بل أنه يشغل الحيز الأكبر من هذا الشعر ، ومنه قوله :

حمدت الله والله الحميد
ولله المؤثل والعديد

وقوله :

انما يحفظ التقى الأبرار
والى الله يستقر القرار

وقوله :

ان تقوى ربنا خير نفل
وباذن الله ريثى وعجل

وقوله :

قضى الأمور وانجز الموعود
والله ربى ماجد محمود

وقوله :

لله نافلة الأجل الأفضل
وله العلا وأثيث كل مؤثل

وغير هذه من مطالع لبيد الاسلامية التى تدل على

عمق ايمـــانه ، وعلى تشرب قلبه وفنـه مبـــادىء الدين الاسلامى .

وأما الحـكمة فلها فى مطالع قصـــائده ومقطوعاته الاسلامية نصيب لا يخفى ، وهى غالبا ما تحث الفكر على التدبر فى الحياة والموت .

كما فى قوله :

ألا تســـألان المرء ماذا يحـــاول ؟
انحب فيقضى أم ضلال وباطل ؟ (١)

وقوله :

تمنى ابنتـــاى ان يعيش أبوهمـــا
وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر ؟

وقوله :

بلينـــا وما تبلى النجوم الطوالـع
وتبقى الجبـــال بعدنا والمصـــانع

وقوله :

مـــا ان تعـــرى المنـــون من أحـــد
لا والـــــد مشـــفق ولا ولـــد

وأما الرثاء فقد كثر فى مطالع قصائده الاســـلامية ، اذ بكى أخاه أربد وحده فى احدى عشرة مرثية بين قصيدة ومقطوعـة وأرجوزة ، الى جانب رثاء قومه وعشـــيرته ،

---

(١) الديوان ٧٢ ، ٢٩٧ ، ٣٨ ، ٤١ ، ١٧٤ ، ٣٤ ، ٢٧١ ، ٢٥٤ ، ٢١٣ ، ١٦٨ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٧٣ ، ١ ، ٤٦ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ١٨٠ ، ٤٧ .

وكثيرا ما يمتزج هذا الرثاء بنزعة متشـــائمة ، يتذمر من الحياة وتطـــاول الأيام ، ويتحسر على ذهاب الطيبين ، من هذه المطالع قوله :

لـــن تفنيــــا خيـــــرات أر
بــــد فابكيا حتى يعــودا

وقوله :

يامى قومى فى المآتم واندبى
فتى كان ممن يبتنى المجد اروعا

أو قوله فى رثاء قومه :

أصبحت أمشى بعد سلمى بن مالك
وبعـد أبـــى قيس وعـــروة كالأجب

وأما المرأة : فلا يذكرها الا ليلومها لا ليتغزل فيها ، وقد قلت فى مطالع قصـــائده الاســــلامية الى حد أنه لم يتعرض لذكرها الا فى هذا المطلع :

اعـــاذل قـــومى فاعــــذلى الآن أو ذرى
فلســــت وأن اقصــــرت عنى بمقصر

من هنا يتضــــح أن لبيدا قد هجر فى ظل الاســــلام المطالع الجـــاهلية والمقدمات التقليدية الطللية والغزلية ، الى مطالع اسلامية تحمل روح الدين وقيمه ، أو مطالــــع متأثرة بالروح الفنية الجديدة ، التى تعمــــد الى الغرض المراد مباشرة دون اللجوء الى مقدمات موروثة عتيقــــة . وهذه المطالع ــ بلاريب ــ أثر من آثار الاسلام فى شـعـر لبيد المخضرم .

كذلك يظهر أثر الاسلام فى البناء الفنى فى شعر لبيد فى :

٢ - التذييل :

يتردد فى تضاعيف شعر لبيد الاسلامى تذييل لبعض الأبيات ، مما يضفى على البيت حسنا وجمالا ورونقا وبهاء ، والجديد فى التذييل الذى نعده من أجله ظاهرة اسلامية قيمة هذا التذييل المعنوية ، فهو غالبا ما يحمل حكمة صائبة ، تستقى ماءها من ينابيع الدين ، أو من تجارب السنين ، فتقع فى النفس موقع الدواء على الداء ، وقد كثر هذا اللون من التذييل فى شعره الاسلامى ، على نحو قوله :

قوم لهم عرفت معد فضلها
والحق يعرفه ذوو الألباب

وقوله :

أكرمت عرضى أن ينال بنجوة
ان البرىء من الهنات سعيد

وقوله :

واكذب النفس اذا حدثتها
ان صدق النفس يزرى بالأمل

وقوله :

فاما ترينى اليوم عندك سالما
فلست بأحيا من كلاب وجعفر

وهذا التذييل الرائع الصائب فى شعر لبيد الاسلامى كثير ، وهو أثر من آثار الاسلام الذى ظهر أيضا فى بناء شعر لبيد الفنى فى :

٣ ـ غلبة المقطوعات والقصائد القصار :

ان شعر لبيد الاسلامى الذى استطعنا ان نستدل عليه بتاريخه ومناسبته وذيوع الروح الاسلامية فيه شعر ـ لاشك ـ كثير ، يمثل على الاقل ثلث شعره جميعه ، ويلفت النظر فيه غلبة المقطوعات والقصائد القصار عليه، بينما تتضاءل فيه القصائد الطوال ، اذ يرى المنقب فى فى هذا الشعر ، ان المقطوعة ـ التى لا تتعدى العشرة الأبيات ـ تحتل مساحة كبرى فى رقعته ، ففيه عشر مقطوعات ، وهى على الترتيب فى الديوان : الأولى ، والسادسة ، والسابعة ، والتاسعة عشرة ، والحادية والعشرون ، والثانية والعشرون ، والثالثة والعشرون ، والخامسة والعشرون ، والثامنة والعشرون ، والحادية والأربعون .

على ان عددا من هذه المقطوعات العشر يتراوح بين الأبيات الأربعة والثلاثة ، كالمقطوعة الحادية والعشرين ، والثانية والعشرين ، والثالثة والعشرين ، ومنهن هذه المقطوعة فى رثاء أخيه اربد :

يذكرنى باربد كل خصم
الد تخال خطته ضرارا

اذا اقتصدوا فمقتصد اريب
وان جاروا سواء الحق جارا

ويهدى القوم مضطلعا اذا ما
رئيس القوم بالموماة حارا

بينما تمثل القصائد القصار التى تتراوح بين الأربعة عشر بيتا والثلاثة والعشرين ستا ، وهى ، الخامسة ،

والســـابعة ، والثـامنة عشرة ، والرابعـــة والعشرون ، والتاسعة والثلاثون ، والتاسعة والأربعون .

بيد أن للبيد أربع قصائد أخرى ، ثنتان متوسطتان ، فاحداهما تبلغ أبياتهـــا واحدا وثلاثين ، وهى القصـــيدة السابعة والعشرون ، وثانيتهما تبلغ أبياتها ثمانية وثلاثين بيتا ، وهىالقصيدة الثامنة ، وثنتان طويلتان تبلغ احداهما اثنين وخمسين بيتا ، وهى القصيدة السادســة والثلاثون ، وتبلغ ثانيتهما خمســـــة وثمانين بيتا ، وهى القصـــيدة السادسة والعشرون .

بينما الأراجيز فى شعر لبيد الاسلامى لا تتعدى الأربع وهى : العشرون ، والثـــالثة والخمســـون ، والثـــامنة والحادية والستون .

وجميع هذه الأراجيز فى الرثاء ، الا الأرجوزة الثامنة والخمســـون – أى الثالثة من هـــذه المجموعـــة – فانها فى سلمان بن ربيعة الباهلى ، الذى كان يلى الخيـــل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقاضيه على الكوفة ، وما وهبـــه الله من نعمة البصر بالخيل ، وما حباه من فضل ، ومنها .

من يبسـط الله عليه اصـــبعا
بالخيـــر والشـــر بأى أولعــــا

يمــلأ له منــه ذنوبا مترعـــا
وقـــد أبـــاد ارمـــا وتبعـــا

الى أن يقول :

أنت جعلت البـــاهلى مقنعـــا
فينـــا فأمسى ماجـدا ممنعـــا

ولبيد في أراجيزه هــذه مقتصد ، حيث جانب فيهـا التطويل ، فهي أشبه ما تكون بالمقطوعات .

ومن ثم يلوح لنا ذيوع المقطوعة والقصيدة القصيرة في شعر لبيد الذي قاله في عهد اسلامه ، وهنا تطل برأســها علامة استفهام ؟ ترى ماسر ذيوع هذه الظـاهرة الفنية في شعر الرجل في هذا العهد ؟ هل يا ترى مردها الى طعنه في السن وثقل الأيام عليه ، وأن ماء قريحته الفياض قــد غاض الا أقله ، فما عادت تسعفه الا بهذا القدر من الشــعر عندما تهتاج عاطفته ، وتتأجج مشاعره ، وتعربد في داخله انفعالاته ؟

أو ان مرد هذه الظاهرة الى تأثر لبيد بما ذاع في دولة الشعر في صدر الاســلام حيث ذاعت المقطوعات وتفوقعت المطولات ؟

والذي أراه - ويراه كل محقق مدقق - ان مرد هــذه الظاهرة عند لبيد الى تأثره بالقالب الفني الاســلامي ، بدليل هجره للمقدمات التقليدية الجاهلية ، وتذييله الكثير من أبياته بالحكمة الصـائبة ، وبدليل قصائده الاســلامية الطويلة اللاتي بلغت احداها خمسة وثمانين بيتا ، فلو قلنا بنضــوب معينه فقط - وحاشــا القول - لاعترض بهــذه القصائد الطوال ، ولقد أفلح من كان عقل ، ولا ضــير أن نضم الى هذا طعنه في السن .

ولاشك أن هذه الخاصية في شعر لبيد الاسلامي تقودنا الى خاصية أخرى في البناء الفني هي :

٤ - الوحدة الموضوعية :

وهي التي تعنى تلاحم الأفكار في الموضوع الواحـد ، وترتيبها ، بحيث تســلم كل فكرة الى أختها ، ولا تنهض

الا بهـــا ، وتلاؤم الأبيـات وتواؤمهـا ، بحيث لا يمكنك الاستغناء عن بيت من أبيات القصـــيدة ، ولا يتســـنى لك تبديل مواضعها بالتقديم او التأخير دون الاخلال بالمعنى ، هذا في الموضوع الواحد ، وما أكثر هذا التلاحم الموضوعي في شعر لبيد الاسلامي لغلبة المقطوعات والقصائد القصار عليه ، فهي ولاريب معدودة الأبيات موحـدة الموضـــوع ، كذلك تتمثل هذه الوحدة الموضـــوعية في القصـــائد التي تنهض بأكثر من موضـــوع في ترتيب الموضوعات ، بحيث تاتي الفكرة مكملة لفكرة أخرى ، دون تفكك أو انقطــاع ، ولم تعي قصائد لبيد الاســـلامية بهذه الخاصـية ، اذ هي مطردة فيهـــا ، فلبيد حين يرثي قومه يتـأمل في الحياة ومصير الماضين من ذوي الشأن والجاه فيستخلص الحـــكم والأمثال ويســـوق المواعظ ، مما يجعلنا نشـــعر بصـــدق مشاعره ، ولاشك أن الصلة وثيقة بين هذين الموضـــوعين ، فكل جزء منهما يذكر بجزء بعده ويســـتجيب لجزء قبله ، فاذا المعاني موصـــولة يأخذ بعضـــها برقاب بعض ، لأن الأفكار متداعية متلاحمة ، والشاعر المبدع هو الذي يحسن وصل فكرة بأخرى ، بحيث تبدو امتدادا لها ، وتتجلى لنا هذه الظاهرة في شعر لبيد الاســـلامي حتى في طويلتيه القصيدة السادسة والعشرين التي مطلعها :

ان تقوى ربنا خير نفـــل

وباذن اللـــه ريثي وعجـل

على ما فيها من فخر بنفسه وقومه ، دعته اليه هـذه الرحلة الشاقة المضنية ، والقصيدة السادسة والثلاثين التي مطلعها :

الا تسألان المرء ماذا يحـــاول

أنحب فيقضى أم ضلال وباطل ؟!

فالصلة وثيقة بين موضوعاته في كلتا القصـــيدتين ، وعبثا يقع القارىء على بتر أو اضطراب أو تفكك .

ولعل لبيدا من أجل الحفـــاظ على الوحدة الموضوعية فى شعره ، والرغبة فى تماســـكه وتعاضده كان يعمد الى الاستدارة ، بحيث لايتم المعنى العـام للقطعة الا فى البيت الاخير ، كان يذكر الشرط وفعله فى بيت ، ويأتى بجوابـه فى بيت آخر على نحو قوله :

فقولا لــه ان كان يقســم أمــره
ألمـا يعظك الدهـــر أمـك هـابل

فتعلم أن لا أنت مـــدرك ما مضـى
ولا أنت مما تحذر النفس وائل (١)

وان أثر الاسلام فى بروز هذه الخاصية فى البناء الفنى فى شعر لبيد واضح ، اذ لم تعد القصيدة عنده ــ كما كانت عند الجاهليين ــ مجرد موضوعات ترص وتصف ، تأخـــذ فى ترتيبها شكلا تقليديا متوارثا ، ولم تعد الوحدة عنـده فى الاســــلام حكرا على البيت المفرد ــ كما كانت ــ فقد أضحت وحدة موضوع مهما طالت القصيدة .

وكان لبيدا بذلك البعد عن هذه التقليدية فى المقـدمة الطللية ، وترتيب الموضـــوعات وتعددها ثم نمـو عـــدد أبياتها ، وتحوله الى هـذه المطالع الاســـلامية الفياضـــة بالتسـبيح والحمد والتقوى ، وهــــذا التذييل الرائع الذى يبقى أثر ما يحمـــل من موعظـة وعبرة فى النفس ، والى صيرورة القصـــيدة عنده فى ظلال الاســـلام الى مقطوعة معدودة الأبيات موحدة الموضوع ، كأنه بذلك يخط الطريق لشعراء الاسلام ، فى الوقت الذى لم يهبط فيه المستوى الفنى لهذا الشعر ، ولا عجب !! فان صدق مشاعر الرجل الدينيـة هو الذى ساعده على أن يحتفظ بمستوى فنه الجـاهلى فى شعره الإسلامى .

* * *

---

(١) الديوان ص ٢٥٥ .

الخـــــاتمة

لبيد بين التأثر والتأثير

على الرغم من أن النابغة الذبيانى قد شهد للبيد بأنه أشعر قيس ، أو أشعر هوازن ، أو أشـــعر العرب (١) وان الفرزدق سمع بيتا له فسجد (٢) فقد كان لبيد يقـدم امرأ القيس وطرفة بن العبد على نفسه ، ويضع نفسه فى المرتبة الثالثة بعدهما ، ويستدل على تقدمه هو فى الشعر بلاميته، حيث سئل لبيد من اشعر العرب ؟ فقال : الملك الضليل ذو القروح (امرؤ القيس) والغلام المقتول (طرفة) وصـاحب المحجن (٣) (يعنى نفسه) حيث يقول :

ان تقوى ربنـــا خيـــر نفـل
وباذن الله ريثى وعجـل (٤)

ولعل لهذا عينه سلكه ابن سلام فى الطبقة الثالثة مـع قيس بن عبد الله (نابغة بنى جعـدة) وأبى ذؤيب الهذلى والشماخ بن ضرار (٥) .

بيد أن الذين يمعنون فى شعر لبيد يجدونه مباينا فى كثير من مناحيه لشعر الرجلين ، فهو « أكثر تنوعا وأشـــد

---

(١) الأغانى ٩٧/١٤ .
(٢) المرجع السابق ٩٥/١٤ .
(٣) المحجن : جاء فى لسان العرب مادة (حجن) ص ٧٩١ ط دار المعارف : والمحجن والمحجنة : العصا المعوجة ، وفى المصباح المنير مادة (حجن) ص ١٢٣ ط الدار : المحجن وزان مقود : خشـــبة فى طرفها اعوجاج مثل الصولجان ، وقال ابن دريد : كل عــود معطوف الرأس فهو محجن . والجمع (المحاجن والحجون) .
(٤) الأغانى ٩٥/١٤ ، والشعر والشعراء ١٠٥/١ .
(٥) طبقات الشعراء ص ٤٢ .

ايحاء وأعمق تجربة من أمرىء القيس ، وابعد جراة من الشعراء ، أو تأثره بهم ، وانما تدل على القدر المشترك القيس فى نواحى اخر ، منها : البكاء على الديار ، اذ من المعروف أن امرأ القيس قد « سبق العرب الى اشياء ابتدعها ، استحسنتها العرب ، واتبعته فيها الشعراء ، منها استيقاف صحبه ، والبكاء فى الديار ... الخ » (٢) .

فلبيد لم يكن وحيد عصره فى تأثره بامرىء القيس فى هذا الجانب . من ذلك قول لبيد فى لاميته التى مطلعها :

ألم تلمم على الدمن الخوالى
لسلمى بالمذانب فالقفال ؟

تحمل اهلها واجد فيها
نعاج الصيف أخبية الظلال

وقفت بهن حتى قال صحبى
جزعت وليس ذلك بالنوال

كأن دموعه غربا سناة
يحيلون السجال على السجال (٣)

ومنها : ذكره البرق والمطر على طريقة امرىء القيس ، كما فى قوله :

اصاح ترى بريقا هب وهنا
كمصباح الشعيلة فى الذبال

---

(١) مقدمة الديوان ص ٢٧ .
(٢) طبقات الشعراء ص ٢٦ .
(٣) الديوان ص ٧٢ وما بعدها .

ارقت له وانجـــد بعد هـــدء
واصحابى على شـــعب الرحال

يضىء ربابه فى المزن حبشـــا
قيـــاما بالحـــراب وبالالال

ومنها الى جانب هذا بعض الصلات التعبيرية بامرىء القيس .

واما طرفة فان تاثر لبيد به يكاد يكون باهتا ، ولا يبدو الا فى المعانى المشتركة ، كما فى قول طرفة :

يشق حباب المـــاء حيزومها بهـــا
كمـــا قسم الترب المفائل باليـد

وفى قول لبيد :

تشـق خمـــائل الدهنا يداه
كما قسم المقـــامر بالفيال

ثم ان للبيد تعبيرات كثيرة تتردد فى اشعار الجاهليين، غير ان هذه الظاهرة لا تدل على أخذه ممن سبقه أو عاصره من الشعراء ، او تاثره بهم ، وانما تدل على القدر المشترك من التعبيرات الشائعة وقتئذ فى عالم الشـعر ، وقد يؤكد على هذه الحقيقة التزام الشـــعراء بالنمط الفنى فى بنــاء قصائدهم ، والذين ســـولت لهم أنفسهم الخروج على نهج الشعر الجاهلى عد ذلك الخروج منهم شذوذا .

ولا يفوتنى أن أنوه الى حقيقة هامة ، هى : أن لبيـدا فى شعره الاســـلامى قد تاثر أيمـا تاثر بالقرآن الـــكريم والحديث الشريف .

أما الشق الثانى فى هذه القضية والمتمثل فى أثر لبيد فى غيره من الشعراء ، فقد كفانا ابن قتيبة مئونته ، حين عرض لما يستجاد من أقوال لبيد ، وتطرق منهـا الى بعض المعانى التى سـبق اليها لبيد فأخذها عنه الشـعراء ، قال : (١) .

« ومما سبق اليه فأخذ منه قوله :

كعقـر الهاجـرى اذا بنـاه
باشـباه حـذين على مثـال

اخذه الطرماح بن حكيم فقال :

حـرجا كمجـدل هاجـرى لـزه
بذوات طبـخ اطيمـة لا تخمـد

قـدرت على مثـل فهن قوائـم
شـتى يلائم بينهن القرمد (٢)

ومن ذلك قوله وذكر نوقا :

لها حجل قـد قرعت من رءوسـه
لها فوقها مما تحلب واشل (٣)

---

(١) الشعر والشعراء ٢٨/١ وما بعدها .

(٢) لبيد يصف ناقته . والعقر : القصر الذى يكون معتمدا لاهـل القرية ، والهاجرى : البناء . اما الحرج فى قول الطرماح فهو : الجسم الطويل من الابل ، والمجدل : القصر المشرف لوثاقة بنـائه ، ولزه : شده والصقه . والقرمد : خزف يطبخ . او هو كل ماطلى به للزينـة كالجض والزعفران .

(٣) يصف لبيد الابل بكثرة اللبن ، وان رءوس حجلها (صـغار اولادها) صارت قرعا اى صلعا ، لكثرة ما يسـيل عليها من لبنهـا ، وتتحلب امهاتها عليها .

اخذه النابغة الجعدى فقال :

لها حجل قرع الرءوس تحلبت
على هامة بالصيف حتى تمورا

ومما سبق اليه فاخذ منه قوله :

من المسبلين الريط لذ كأنما
تشرب ضاحى جلده لون مذهب

اخذه الاخطل فقال :

لذ تقبله النعيم كانما
مسحت ترائبة بماء مذهب (١)

وقوله يذكر قوما ماتوا :

وانا واخوانا لنا قد تتابعوا
لكا المغتدى والرائح المتهجر

اخذه المحدث (أبو نواس) فقال :
سبقونا الى الرحيل وانا لبا لاثر »

ثم يقول ابن قتيبة : ولبيد أول من شبه الأباريق بالبط ، فاخذ ذلك منه ، قال يذكر الخمر :

---

(١) من الراخين ازرهم ، ولازرهم فضل على وجه الارض ، والريط : الملاءة الملفوفة . ولذ : من اللذة ، يقال : رجل لذ : ملتذ . وضاحى جلده : ظاهره : كانما تشرب ماء مذهبا من نعمته ونضارة لونه .

ومعنى تقبله النعيم — فى قول الاخطل — بدا عليه واستبان فيه .

تضمن بيضا كالأوز ظروفهـا
اذا أتاقوا أعناقها والحواصلا (١)

وممن اخذوا هذا المعنى شبرمة الضبى اذ يقول :

كأن أباريق الشمول عشـية
أوز بأعلى الطف عوج الحناجر (٢)

وللبيد فى كل ما سبق فضل السبق والابتكار ، وروعة الايجاز قبالة اطناب الطرماح ، ودقة الاطلاق ازاء تقييـد الجعدى بالصيف ، وعظمته حين اشرب ظاهر الجلد المـاء المذهب ، بينما يمسح الأخطل الترائب بماء الذهب ، وقوة الايحاء اللفظى فى : تتابعوا والمتهجر ، الذى لا نلحظه فى قول ابى نواس .

ويلوح لى ان تأثر الشعراء بلبيد لم يقف عند حد هـذه المعانى ، فان الذى يتصفح ديوان شعره تتجلى امام عينيه هذه الحقيقة ، ويدرك عن كثب أن حسان بن ثابت حينمـا قال :

أصون عرضى بمالى لا أدنسه
لا بارك الله بعد العرض فى المال

قد نظر الى قول لبيد :

أقى العرض بالمال التلاد واشترى
به الحمد ان الطالب الحمد مشترى

(١) اتاقوا : ملئوا الحواصل : جمع حوصلة ، وحوصلة الحوض : مستقر الماء فى اقصاه ، استعملها لمستقر الخمر فى الابريق . فالخمرة توضع فى أباريق تشبه الأوز فى اشكالها .
(٢) انظر ديوان لبيد ص ٢٤٤ .

وأن الفرزدق ـ الذى كان معجبا بشاعرنا ـ حين قال يتطاول على جرير :

ان الذى سمك السـماء بنى لنـا
بيتـا دعائمـه اعز واطـول

وحين قال :

أولئـك آبائـى فجئنى بمثلهـم
اذا جمعتنا يـا جريـر المجـامع

قد نظر الى قول لبيد :

فبنى لنـا بيتـا رفيعـا سـمكه
فسـما اليـه كهلهـا وغلامهـا

وقوله :

اولئك اسـرتى فاجمـع اليهـم
فمـا فى شـعبتيك لهـم نديـد

ويلوح للناظر ايضا ان صـالح بن عبد القدوس عندما قال :

ما الناس الا عاملان : فعامل
قد مات من عطش وآخر يغرق

كان أمام ناظرى صالح قول لبيد :

وما الناس الا عاملان : فعامل
يتبر ما يبنى وآخر رافـع

وأن ابا ذؤيب الهذلى عندما قال :

امن المنون وريبهـا تتوجـــع
والدهر ليس بمعتب من يجزع ؟!!

كان ينظر الى قول لبيد :

فبرى عظامى بعد لحمى فقدهم
والدهر ان عاتبت ليس بمعتب

ولعل أبا فراس الحمدانى كان يرمق من طـــرف خفى قول لبيد :

فشـــوى ولـــم يوجـــع ولـــم
يوصـــب وكـــان هـــو الفقيـــدا

وذلك عندما قال الحمدانى فى أسره :

سيذكرنى قومى اذا جد جدهم
وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

لقد كان أثر لبيد واضحا فى غيره من الشـــعراء الذين ولوا وجوهم شطر ساحة شعره ، سواء منهم من كان عصرى لبيد ، أو من جاء بعده على طريق الشعر ، وأن تأثير لبيـــد بارز فى الشعر والشعراء . وفى غير الشـــعراء ممن كانوا يتمثلون بشعره فيما يعن لهم من مواقف وأحداث .

وبعد : فلعلى قد دمغت زيفا وقررت حقيقة واشـــهدت غائبا ، ووصلت بشاعرنا المسلم الى مرافىء الصواب .

ولعل هذه الصـــحائف قد كشفت عن لبيد الشـــاعر المخضرم ، وشعره الذى قاله فى ظلال الاسلام ، وأنها قـــد

نقبت بعمق فى هذا الشعر ، فبلورت خصائصه ، وأبرزت أثر الاسلام فيه من جميع المناحى .

وهكذا تمضى الأجيال وتتعاقب ، ويبقى بين ظهرانيهم شعر لبيد ، وحسبه اليوم البقاء فى رداء الحقيقة ، وليرحم الله لبيدا الذى نزل من نفوس الناس منزلة رفيعة ، فأحبوه وأكرموه وأعجبوا بشعره ، فتمثلوا به وتناشدوه ، واستمدوا منه الحكم والأمثال والفصاحة والجمال ، ورأوا فيه مرآة للحياة البادية ، كما رأوا فيه مرآة صافية نقية للنفس المسلمة التقية .

* * *

فهرس المراجـع

١ ـ الأدب العربى وتاريخـه فى العصر الجـاهلى : د٠ محمد هاشم عطية ٠ ط الثـالثة مطبعـة الحلبى بمصر ١٩٣٦ م ٠

٢ ـ الاستيعاب فى معرفة الأصحاب : لابن عبـد البر ، تحقيق : على محمد البجـاوى ٠ مـكتبة نهضـة مصر ومطبعتها ٠

٣ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة : لابن الأثير ٠ ط : مصر ١٢٨٠ هـ ٠

٤ ـ الاسلام والشـعر : د٠ يحيى الجبورى ٠ مـكتبة النهضة بغداد ١٩٦٤ م ٠

٥ ـ الاصابة فى تمييز الصحابة : لابن حجر العسقلانى٠ تحقيق : على محمد البجـاوى ٠ دار نهضـة مصر للطبع والنشر ٠

٦ ـ اصلاح المنطق : لابن السكيت ٠ تحقيق : عبد السلام هارون وشاكر ٠ دار المعارف مصر ١٩٥٦ م ٠

٧ ـ الأغانى : لأبى الفرج الأصفهانى ٠ ط : الساسى ٠

٨ ـ أمالـى المرتضـى : للشريف المرتضـى ٠ تحقيق : محمد أبو الفضـل ابراهيم ٠ طبعـة الحلبى ٠ ط الأولى ١٣٧٣هـ ٠

٩ ـ أيام العرب فى الجاهلية ٠ لجاد المولى والبجاوى وأبى الفضل ابراهيم ٠ طبعة عيسى البابى الحلبى ٠

١٠ - البيان والتبيين : للجاحظ . تحقيق : عبد السلام هارون . ط . لجنة التاليف ١٣٧٦ هـ ١٩٤٨ م .

١١ - تاريخ الطبرى : لابن جرير الطبرى . طبعة : المطبعة الحسينية . ط الاولى .

١٢ - التطور والتجديد فى الشعر الاموى : د. شوقى ضيف . ط الرابعة . دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م .

١٣ - جمهرة أشعار العرب : لابى زيد القرشى . طبعة بولاق ١٣٠٨ هـ .

١٤ - حديث الاربعاء : د. طه حسين . دار المعارف بمصر ١٩٢٥ م .

١٥ - حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة . الجزء الاول ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .

١٦ - الحيوان : للجاحظ . تحقيق : عبد السلام هارون طبعة الحلبى ١٩٤٨ م .

١٧ - خزانة الأدب : للبغدادى . تحقيق عبد السلام هارون . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر . القاهرة ١٣٨٩ هـ .

١٨ - السيرة النبوية : لابن هشام . دار التراث العربى للطباعة والنشر ١٩٧٩ م .

١٩ - شرح ديوان لبيد بن ربيعة . تحقيق وتقديم : د. احسان عباس الكويت ١٩٦٢ م .

٢٠ - شرح المعلقات السبع : للزوزنى ، طبعة بيروت ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م .

٢١ – الشعر الجاهلى ، مراحلة واتجاهاته الفنية ، د. سيد حنفى حسنين ، الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ١٩٧١ م .

٢٢ – الشعر فى الاسلام : د. أحمد فؤاد الغول ، مطابع صوت الخليج ، ط الثانية ١٩٧٩ م .

٢٣ – شعر المخضرمين وأثر الاسلام فيه : د. يحيى الجبورى ، مكتبة النهضة بغداد ١٩٦٤ م .

٢٤ – الشعر والشعراء : لابن قتيبة ، طبعة ليدن ١٩٠٤ م ، وطبعة دار المعارف بمصر بتحقيق : أحمد شاكر ١٩٦٦ م .

٢٥ – شعراء النصرانية : لويس شيخو اليسوعى ، طبعة بيروت ١٩٢٦ م .

٢٦ – طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين : لابن سلام الجمحى ، طبعة صبيح مصر .

٢٧ – الطبقات الكبرى : لابن سعد الزهرى ، طبعة ليدن ١٣٢٢ هـ .

٢٨ – العصر الاسلامى : د. شوقى ضيف ، دار المعارف بمصر ، ط الخامسة ١٩٦٣ م .

٢٩ – العصر الجاهلى : د. شوقى ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م .

٣٠ – العقد الفريد : لابن عبد ربه ، تحقيق : أحمد أمين ورفاقه ، طبعة لجنة التاليف ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦ م .

٣١ — العمدة فى محاسن الشعر وآدابه : لابن رشيق . تحقيق : محيى الدين عبد الحميد . ط الثانية مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٥ م .

٣٢ — عيون الأخبار : لابن قتية . طبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٣ هـ ١٩٢٥ م .

٣٣ — فى الأدب الاسلامى والأموى : د. سليمان ربيع . ط الثالثة . مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٦ م .

٣٤ — الكامل فى اللغة والأدب : للمبرد . نشر زكى مبارك واحمد شاكر . طبعة الحلبى ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م .

٣٥ — كتاب المعمرين من العرب : لابى حاتم السجستانى طبعة صبيح .

٣٦ — لبيد بن ربيعة العامرى : د. يحيى الجبورى . نشر مكتبة الاندلس بغداد . طبعة بيروت ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م .

٣٧ — لسان العرب : لابن منظور . طبعة بولاق ١٣٠٠هـ و ط دار المعارف .

٣٨ — مجالس ثعلب : لأبى العباس ثعلب . تحقيق : عبد السلام هارون . طبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٨ م .

٣٩ — مجمع الأمثال : للميدانى . مطبعة السعادة . ط الثانية ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ م .

٤٠ — محاضرات الأدباء : للراغب الأصبهانى . طبعة ١٣٢٦ هـ .

٤١ ـ المرأة فى الشعر الجاهلى : د٠ أحمد الحوفى ٠ طبعة نهضة مصر ١٩٥٤ م ٠

٤٢ ـ معجم الشـــعراء : للمرزبانى ٠ طبعـــة القدسى ١٣٥٤ هـ ٠

٤٣ ـ المعمرون والوصـــايا : للسجســـتانى ٠ تحقيق : عبد المنعم عامر ٠ طبعة الحلبى ١٩٦١ م ٠

٤٤ ـ المفضليات : للمفضل الضبى ٠ شرح ابن الانبارى طبعة ليدن ١٩٢٠ م ٠

٤٥ ـ الموشح : للمرزبانى ٠ طبعة الســـلفية القـــاهرة ١٣٤٣ هـ ٠

٤٦ ـ موقف الاسلام من الشعر : د٠ صلاح الدين عبـــد التواب ٠ مطبعة السعادة ٠ ط الأولى ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م ٠

٤٧ ـ نظرات فى الأدب فى عصر صـــدر الاســـــلام : د٠ محمود فرج العقدة ٠ دار الطباعة المحمدية ٠ ط الثانية ١٩٦٥ م ٠

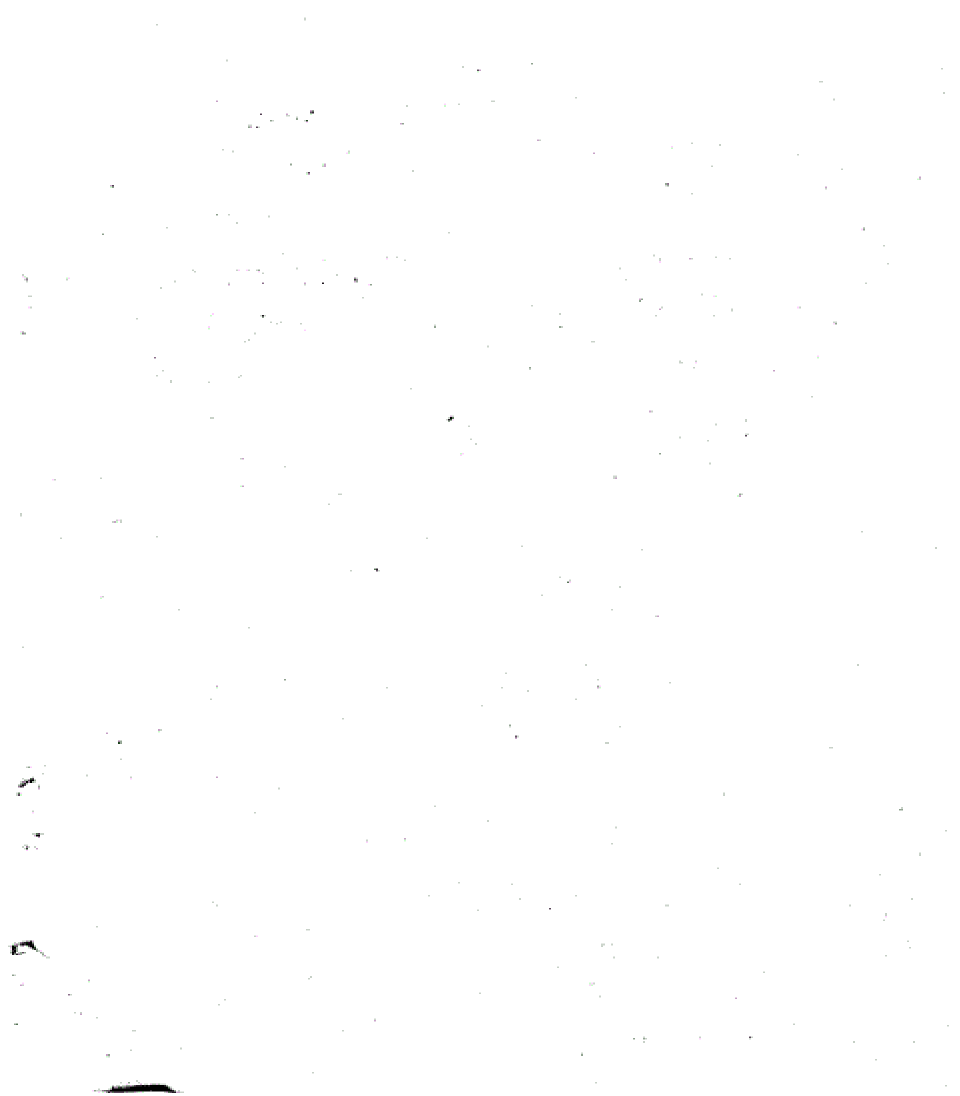
فهرس البحث

الموضوع رقم الصفحة

القسم الثالث

القسم الرابع

الموضوع	رقم الصفحة
الخـــاتمة	
لبيد بين التأثر والتأثير	١٧١ ـ ١٧٩
فهرس المراجـــع	١٨١ ـ ١٨٥
فهرس البحث	١٨٧



رقم الايداع بدار الكتب ٣٨٦١ لسنة ١٩٨٤